المكتبة

زوران جيفكوفيتش

ترجمة نوف الميموني

تقديم طارق الخواجي






مكتبة
الفكر
الجديد


مكتبة
الفكر
الجديد

زوران **جيڤكوڤيتش**

المكتبـــة

ترجمــة

نوف الميموني

تقــديم

طارق الخواجي






مكتبة
الفكر
الجديد

مقدمة الطبعة العربية

في عـــام 2002 كتبت ومن ثم نشرت رواية المكتبــة التي تندرج تحت تصنيــف « روايات الموزاييك». وبعد ذلك بعام، أي في ســنة 2003م كانت لها حظــوة الفــوز بجائــزة «أدب الخيال العالمــي» (World Fantasy Award) عــن فئة الروايــة القصيرة وذلك في مؤتمر أدب الخيال العالمي في العاصمة الأميريكة واشنطن. كانت تلك المرة الثانية في تاريخ هذه الجائــزة المرموقة التي يكون الفوز بها من نصيب رواية لم تكتب بالإنجليزية.

بعد ذلك، أصبحت المكتبة أكثر أعمالي ترجمةً حتى الآن. وأحد أشــهر الأعمال الأدبية الصربية في مطلع القــرن الحادي والعشرين. حيث تم ترجمتها إلى ســت عشرة لغة. كان النصيب الأكبر منها في البرتغال بعدد 3 طبعــات. وفي تركيا طبعت الرواية مرتين. كما تســنى لها أن تنشر في كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية، إسبانيا، كرواتيا، المملكة المتحدة، الدنمارك، بولندا، سلوفينيا، اليابان، إيطاليا، ألمانيا وكوريا الجنوبية.

إلى جانــب ذلك، كان للمكتبة نصيب مــن الحضور على المسرح، حين قدم فنانــون عروضاً مسرحية في كلٍ من البرتغال وايطاليا مســتوحاة منها. كما أدرجت ضمن قائمة الكتــب الأدبية المفروضة على الطلاب



في البرتغال، وتمت الكتابة عنها ونقدها باستيفاء في كبريات المجلات الأدبية. إلى جانب ذلك كله كانت المكتبة موضوعًا لرسالة دكتوراة.

يشرفني كثيرًا اختيار دار أثر في المملكة العربية السعودية كتابي هذا لترجمته إلى اللغة العربية، والمكتبة حسبما أعرف هي أولى الكتب الأدبية الصربية المعاصرة التي تترجم في العالم العربي، وهي بالتأكيد أول عمل من أعمالي ينقل إلى اللغة العربية، إحدى أعظم اللغات في العالم.

إن أعظم شرف يحظى به أي أديب هو مدّ جسور التواصل بين الثقافات المختلفة. والمكتبة هي إسهامي المتواضع في بناء الجسر الأول. أتمنى أن يستمتع القراء في المملكة وبقية العالم العربي بروايتي الموزاييكية هذه. وآمل أن تلاقي أصداء إيجابية لدى عموم القراء وتتابع دار أثر نشر بقية أعمالي الأدبية.

زوران

بلغراد، 2 يونيو 2015



إلى موريل... مع حبي

عندما تأكل من مكتبتك ستجدها أمامك

طارق الخواجي

أحياناً لا يكفي كاتبٌ أن يتخلى عــن المنطق لصنع عالمه المتخيل، يجدر بالقارئ هــو الآخر أن يتخلى تماماً عن المنطــق للوصول إلى عالم ذلك الكاتب، ليجد نفســه على الأقل قادراً على الــبروز ولو قليلاً، في ذلك العــالم الذي يتفق أصحاب المنطق على حظوة العيش فيه لو كان حقيقياً ومتفقاً مع شروطهــم المتزمّتة، والتي تجعل الحياة صعبة لولا فســحة الأمل بأن هناك من يتنفس عبق بورخيس بعد رحيله بعقدين.

عندمــا وقعت رواية المكتبــة بين يدي، مترجمة على يد المترجمة الشــابة نــوف الميموني، شرعت مبــاشرة في قراءتها، كعــادة كل انتظار ينتهي بلقاء يحــوي من التملك أكثر مما يحوي من الامتنان، لكن مع كل قطعة من الفسيفســاء التي يبدعها زوران جيفكوفيتش، لخلق لوحته الباهرة في النهايــة، فإن الامتنان يتسرب إليك مبكــراً ومبكراً جداً منذ المكتبة الافتراضية التي نجد أنفســنا قريبين وبعيدين منها في الآن نفســه، إنها عالم قريب جــداً إلينا، لكن جيلاً هائلاً لا يقــترب من هذه العوالم إلا



لماماً، للضرورة التي تفرضها التقنية اليوم، لكن هذا الموازييك الذي يجسد حنيناً وولعاً هائلاً بالكتب والمكتبات قادر على فرض حضوره اليوم في الأجهزة الكفية واللوحية ومحركات البحث التي تتيح فرصاً كبيرة لتدشين ولو فخري لمكتبة بابل السداسية، ولروايات وهمية مثل الدنو من المعتصم، وحتى حل أحجيات مثل لعبة الحجلة لكورتثار، وإدراك الخط الفاصل بين الحياة والموت عند بيدرو بارامو، إنها الفرصة التي تفترضها القدرة الهائلة اليوم على الربط، والتي قد تستنزف منا أياماً وليال لجمع شتات كل هذا التراكم الحضاري العريض من الفنون والآداب، لكن جيفكوفيتش يقترح لنا فرصة نادرة مثل جمع تاريخ هذا كله في كتاب نجده كل يوم حاضراً أمامنا، وكل ما علينا فعله هو رصه في المكان الأثير إلى قلوبنا، أو ربما في قلوبنا نفسها، هكذا نجد أنفسنا مدفوعين بشغف يتجاوز المنطق والأعراف في المكتبة المنزلية، التي لا تبعد إلا خطوات قليلة عن المكتبة الليلية، التي يتم فيها تداول سجلاتنا الهائلة التي تؤرخ لكل شيء في حياتنا، دون الحاجة لحبل دون خوزيه حيث تفصل سجلات الأحياء عن سجلات الأموات الذين ربما نسيناهم، أولئك القابعون في غيب لا نعلمه، نقترح لهم اقتراحات نعيم وعذاب، دون معرفة انتكاس المنطق أو اعتداله هناك، حيث توجد مكتبة الجحيم التي تأتي هي الأخرى كاقتراح لا يمكن أن يصدر إلا عن إيتالو كالفينو أو إدواردو غاليانو وسيء الذكر كزافييه ميستر!



جيفكوفيتش لا يرعوي عن إدهاشنا في كل منعطف من لوحته المصممة بطيف لون واحد يتعدد ليصنع قوس مطره الخاص، تحية إجلال باهرة للحياة التي تنبعث من الكتب لتعيش خارجها، ندخل الجحر نطارد الأرنب الثرثار، لكننا نخرج متبوعين برائحة عطر تم تقطيره على مدى عشرين عاماً، أمام المكتبة النفيسة التي تظل عاجزة عن الاكتمال، لأن كتاباً واحداً فقط يصر على الظهور فيها كل ليلة ما عدا ليلة اكتمال القمر، حيث يخفي النور الساطع للبدر كل الشوائب في مكتباتنا التي نرص فيها غنائمنا بعد كل غزوة مباركة لمكتبة لا تطاردنا فيها عين البائع الذي يقترح دائماً ذلك الكتاب الذي يفسد مكتبتنا النفيسة، حيث لا أمل للتخلص منه سوى التهامه كاملاً، لنبلغ اليقين ونكون جزءاً من اللوحة التي بدأها جيفكوفيتش من حاسوبه الخاص إلى معدته المروضة جيداً، حاملين معنا كتاباً واحداً فقط، والذي يمكننا القول عنه بفخر أنه أصغر مكتبة في العالم، ليس كتاب الرمل حتماً، ولا كتاب أرسطو المفقود عن الكوميديا، ولا مخطوطات أبي حيان التوحيدي التي أحرقها في آخر عمره، يمكننا فقط أن نقترح ونتمنى أن نجد الكتاب الذي اقترحناه في أذهاننا ماثلاً أمامنا في كتابنا الأثير هذا.

حصل جيفكوفيتش على شهاداته الجامعية تباعاً حتى الدكتوراه من جامعة بلغراد في صربيا في نظرية الأدب والخيال العلمي مقدماً رسالته في أعمال آرثر سي. كلارك، ومنذ منتصف السبعينيات وحتى أوائل



التسـعينيات، ترجم زوران جيفكوفيتش ما يقارب ٧٠ كتاباً في الخيال العلمي، ونشر ٢٠٠ كتابٍ من خلال الدار التي أسسها في بلغراد تحت مسـمى منشـورات بولاريس -بولاريس هو نجم القطب الشمالي-، وكان وراء بعض برامج الخيال العلمي وكان هو المضيف في المسلسـل التلفزيوني الصربي الذي أطلق عليه اسم «شاشة متخمة بالنجوم».

فجـأة بعد منتصف التسـعينيات توقف جيفكوفيتش عـن الكتابة في الخيال العلمي مطلقـاً، ولم يعد لذلك حتى هـذه اللحظة، وقد تكرر سـؤاله عن ذلك مراراً، وكانت ردوده على الـدوام تدور حول إيمانه بأنه كاتب ولا معنى لأن يوصد نفسـه في صنف دون غيره، وعلى مدى مـا يقرب عشرين عاماً منذ ذلك الوقت نـشر جيفكوفيتش ٢٠ كتاباً، ترجمـت إلى أكثر من ٢٠ لغة وحصدت انتشـاراً فيما يتجاوز ٧٣ طبعة في مجموعهـا، وهو ما يعتبر نجاحاً هائـلاً لكاتب من خارج الولايات المتحدة الأمريكية، إذ عرض عليه أن يغير اسمه إلى دونالد ليفينغستون لكـي يضمن النجاح هناك، لكنه رفض، ليصبح اسـماً بارزاً بعد فوزه بجائزة الفانتازيا العالمية عام ٢٠٠٣م، عن عمله «المكتبة»، التي تقدمها دار أثر في خطوة تسـتحق الاحتفاء، على أمـل أن تجد أعماله الأخرى مثل «الدائـرة الرابعة» و«الجسر» فرصة قريبة للنشر أيضاً، كونها أعمال تداولها النقاد بالمديح والإطراء وحصدت رواجاً جماهيرياً ملحوظاً.

ما يجعل نص «المكتبة» مختلفاً هو الغرض الذي تناقشه، إنها نص خالص



في مديح الكتب والمكتبات يتعالى على النقاشـــات الضارية اليوم حول جدواها كضرورة في بيوتنا وفي مدارسنا ومدننا، لكننا بعد الانتهاء من هذا العمـــل الذي يقرأ مراراً، نتمنى أن نقع على أعمال أكثر، علّنا نطعم بها مكتباتنا لتصبح نموذجاً للمكتبة النفيسة، ونضمن لهذا الكتاب قدراً متواضعاً من الخلـــود. لأننا هكذا بالتحديد كما يقـــول ألبرتو مانغيل، نمارس من خـــلال القراءة طقس انبعاث، مرحبين بالمكتبة كنص جديد إلى كوننا العربي، مكتبتنا العربية.

المكتبة الافتراضية

لا يخلو البريد الإلكتروني من العيوب. رغم أن مزودي خدمة الإنترنت يحاولون جاهدين حمايتنا من تلقي الرسائل غير المرغوب فيها، لكن بلا جدوى. فمتى ما فتحت رسائلي الواردة على شاشة حاسوبي أجد أمامي رسالة واحدة على الأقل أرسلها شخص مجهول. وقد أجد أكثر من رسالة. أقصى عدد وصلني كان ثلاث عشرة رسالة دعائية، مُرسلة خلال بضع ساعات من جلوسي أمام حاسوبي.

وعندما حدث ذلك بلغ بي الانزعاج حد تغيير عنوان بريدي الإلكتروني، رغم ما سببه لي من تعطيل. وأعطيت عنواني الجديد إلى قلة من الناس، لكن تلك الخطوة لم تجدِ نفعًا أيضًا. ما زالت هذه الرسائل المزعجة تصلني. شكوت ما يحدث إلى مزودي الخدمة الذين أتعامل معهم، فاعترفوا اعترافًا ملتويًا أنهم لا يملكون حلاً لهذا الأمر. ونصحوني بأن أمحو أي شيء لا يثير اهتمامي، خاصةً أن فيروسات الحاسوب الخطيرة غالبًا ما تنتشر عبر الرسائل الإعلانية.

لم تكن نصيحتهم ذات قيمة، حيث إني أمسح فعلاً جميع الرسائل الإعلانية التي تردني، وإن لم أكن أعلم وقتها بعلاقتها بنشر الفيروسات. كنت في البداية أقرأها وكلّي حيرة من سبب وصولها إليّ، لكن بعد أن عرفت ما طبيعتها، أخذت أمسح كل رسالة مجهولة المصدر دون إبطاء. لم أكن حتى أمنحها لمحة سريعة، رغم ما يتكبده مرسلوها من جهود



عظيمة لجذب انتباهي بالعناوين الصارخة الوامضة، والرسومات المزخرفة التي تروج عروضًا لن تتكرر ولن تعوض.

أحد تلك العروض مثلاً يعدني بالثراء ما بين ليلة وضحاها، إن أنا استثمرت مالي عبر وكالة ذات اسم جذّاب، مقرها إحدى دول المحيط الهادي التي لم أسمع عنها من قبل. وأخرى تدعوني لأن أصبح مبشرًا في أي كنيسة أختارها، مع التصريح لي بعقد طقوس التعميد، ومراسم الزواج والجنازة. وثالثة تدعي أنها ستمنحني الفرصة في أن أدير عقارب الساعة إلى الوراء خمسة وعشرين عامًا، بغض النظر عن سني، باستعمال علاج طبيعي حديث يطيل العمر. كما تلقيت فرصة فريدة لا مثيل لها لتحصيل حقي من أموال التعويضات بأمر المحكمة، إن كانت لدي مطالبة من هذا النوع، نظير عمولة تافهة لا تتجاوز 49٪ بالمائة. وأستطيع إشباع إدماني على لعب القمار، في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، باللعب في كازينو افتراضي مضمون الأمانة. وآخر عرض وأغربه، هو ما وصلني من أنني أستطيع الحصول على مليونين ونصف مليون عنوان بريد إلكتروني نشط ومعتمد، أستطيع أن أرسل إليها ما أشاء وقتما أريد، مقابل مبلغ زهيد يُدفع خفية.

ربما كان سيكون مصير الرسالة التي بدأت هذه الحكاية سلة المهملات مع مثيلاتها، لولا أن اقتضابها الشديد جعلني أقرأها بلا قصد مني. كانت خلفية الرسالة سوداء خالية من الزخرفة. وبأحرف صفراء كبيرة احتلت السطر الأول، كُتب «المكتبة الافتراضية»، والشعار تحتها



يقول «لدينا كل شيء!» بأحرف زرقاء صغيرة جدًا. وهذا أمر بحد ذاته غريب، لأن هذه الرسائل تتخذ عادةً لهجة محفزة، مثيرة للأعصاب.

كانت تلك مــن أفظع المبالغات التي رأيتهــا على صفحات الإنترنت. صحيح؟! كل شيء؟!

هذا قول لا تجرؤ أكبر المكتبات في العالم على ادعائه. لقد غاب عن ذهن من ابتدع هذه الدعاية عدد الكتب المنشورة خلال الخمسة آلاف عام الماضية. لم يفلح أحد قط في إنشاء مكتبة بهذه الضخامة وجمع كتبها في مكان واحد، حتى لو أسقطنا من الحسبان تلك الكتب التي اختفت وابتلعها النسيان.

وهذه الكلمــة... افتراضية! لو أنهم يقصدون المعنــى الحقيقي لعبارة «المكتبــة الافتراضيــة»، فهذا يعنــي أن تكون مكتبــة مؤلفة من كتب إلكترونية، والإنترنت حافل بمواقع عديدة تضم إصدارات إلكترونية. وأنا أزورها من وقت لآخر. لكن الكتب التي تعرضها هذه المواقع قليلة جدًا، ولا يتجاوز عددها بضع مئات من المؤلفات... قطرة في محيط إن قارناها «بكل شيء» التي تجزم هذه المكتبة بتوافرها لديها. ومن يجرؤ أن يطــير به الأمل، فيظن أنه يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الورق إلى الشاشة. ومن سيكلف نفسه هذا العناء والمشقة؟!

كنت واثقًا أنها حيلة لا محالة، لكن فضولي منعني من أن ألحق الرســالة بالأخريات. ولو كانت الرسالة عن أي شيء غير الكتب ما كنت التفت إليها بتاتًا. لكن نحن الكتّاب لا نســتطيع تجاهل رســالة كهذه، كما لا يستطيع ثور تجاهل تلويح القماش الأحمر أمام عينيه. لم أمسح الرسالة،



بل مررت المؤشر فوق النص حتى تحوّل السهم إلى يد مرفوعة السبابة. حينها وجدت نفسي في موقع «المكتبة الافتراضية».

كان الانتقال سريعًا فلم ألحظ أي تغير يذكر. ظلت الخلفية سوداء لكن ظهرت إضافتان صغيرتان تحت اسم الموقع وشعاره. أول إضافة هي خانة البحث المعتادة؛ وهي مستطيل أبيض ضيق يكتب فيه الزائر ما يبحث عنه. غير أنك هنا لا تستطيع إدخال عنوان الكتاب أو أي بيانات أخرى، لأن كلمة «الكاتب» هي الكلمة الوحيدة الظاهرة في المستطيل. هززت رأسي ساخرًا... أهذه هي إمكانات المكتبة التي تفاخر بأنها «الأشمل»؟! وفي أسفل الشاشة ظهر عنوان بريد إلكتروني قصير.

كتبت اسمي في الخانة. لم أفعل ذلك لغروري كما قد يبدو. لقد اخترت نفسي لأنني أعلم الناس بكتبي، فإن كانت «المكتبة الافتراضية» تحوي حقًا «كل شيء» كما يدعي شعارها، فلا شك أنني سأجد كتبي الثلاثة فيها. لا أدعي أنني كاتب مشهور لكنني متأكد أن كتبي ستكون موجودة في مكتبة تضم مؤلفات جميع الكتّاب. فمكان كهذا لا يمكن أن يكون فيه تفرقة أو محاباة. لن تخرج نتيجة البحث عن أحد احتمالين. إن لم تخرج النتيجة المتوقعة، وهذا هو الاحتمال الأرجح، فإن الموقع مجرد خدعة حاكها شخص أراد أن يهزأ بالكتّاب، بل إنه يهزأ كذلك بالناشرين والنقاد، وأمناء المكتبات وبائعي الكتب، وعالم الثقافة بأكمله. من يدري أي مصيبة ستظهر لي بدلاً من صفحة تعدد أعمالي. لكن ليس لي أن أتذمر، فلم يجبرني أحد على زيارة الموقع. وسأكون قد نلت جزائي كاملاً على فضولي إن كان حقًا مقلبًا.



لكن إن ظهرت لي كتبي على هيئة كتب إلكترونية، فالمصيبة أعظم. فأنا لم أمنح لأحدٍ حق نشرها إلكترونيًا، مما يعني أنها نسخ مقرصنة عن كتبي. وهذه مشكلة عصيبة. فالإنترنت مليء بهذه النسخ غير القانونية، ولا سبيل للحد أو الحماية منها حسبما سمعت، كما لا سبيل إلى حماية الشخص من تلقي الرسائل الإلكترونية من مصادر مجهولة.

إن كانت كتبي موجودة فعلاً في «المكتبة الافتراضية» فإن عملية البحث ستستغرق وقتًا طويلاً. يستحيل أن يتم البحث في ملايين المؤلفات في ثوانٍ، مهما كانت سرعة الحاسوب.

لكن هذا ما حدث!

فحالما نقرت فأرة الحاسوب لبدء البحث، ظهرت صفحة جديدة على الشاشة. لكنها هذه المرة كانت صفحة رمادية بأحرف بيضاء وسوداء، وظهرت صورة ملونة صغيرة خالفت النسق العام للصفحة.

ظننت في البداية أن السرعة التي ظهرت فيها الصفحة دليل قاطع على حدوث خلل، لكن عندما وجدت أنني أنظر إلى وجهي يطل من الشاشة... اقشعر جسدي. هذه صورتي بلا شك، رغم أنني لا أتذكر متى أو أين التقطت. أبدو فيها أصغر سنًا، وإن لم أتبين كم عمري بالضبط.

وفي الجانب الأيسر من الشاشة تحت الصورة أُضيفت نبذة عن حياتي. كانت كل المعلومات المذكورة صحيحة، إلا آخر فقرة. أنا ما زلت حيًا!

هل حصل لي شيء دون أن أنتبه؟!

كانت الحقائق المدرجة عن وفاتي غريبة وغير واضحة، فكلمة (مات)



متبوعة بتســعة تواريخ مختلفة، تفصل بينها الفواصل. وكانت الأرقام باللون الأبيض، خلافًا للكلمات التي كانت بالأسود. كان أقرب تاريخ بعد 15 عامًا، أمــا أبعد تاريخ فكان بعد نصف قــرن تقريبًا. يبدو أن لمحرر الصفحة حس من الفكاهة السوداوية.

وجدت في طرف الشاشــة الأيمن قائمة بكتبــي، لكنها لم تنتهِ بعد الكتاب الثالث بل استمرت حتى الكتاب رقم واحد وعشرين. هذا هراء! لن أدعي أن ببيليوغرافية ثرية كهذه لا تسرني، لكنها ليست من مؤلفاتي. ظهر في هذه القائمة كســابقتها لونان؛ أســود للكتب الثلاثة التي نُشرت فعلاً، وأبيض للثمانيــة عشر كتابًا الأخرى. وكانت تلك الكتب الأخرى مرتبة بحســب تاريخ صدورها. أولها كتاب ســينشر العام المقبــل، ثم تتوالى الإصدارات على مدى خمســة وأربعين عامًا، حتى تاريخ صدور آخر كتاب. إذًا لم يكن مدبر المقلب ذا عقل مختل فحسب، بل إنه يظن نفسه متبصرًا بالغيب.

لكــن هذا لا يهم. ما يهم هو أن أعــرف إن كان هذا من صنع عاطلٍ لم يجد عملاً يشــغله إلا اختراع هذا العبــث. والإنترنت مليء بأناس لا يعنيهــم إن بذلوا الجهد والوقت في تدبير مقالب كهذه، وأولهم قراصنة الحاسوب. هؤلاء الذين يولّدون فيروســات مدمّرة وينشرونها، رغم أنهم لا يجنون أي فائدة ســوى المتعة الخبيثة. ضغطت بالسهم على أولى كتبي الثلاثة، واثقًا أن لا شيء سيحدث، لكن السهم تحول للأسف إلى يدٍ مرة أخرى، وامتلأت الشاشة بالنص.

عرفت من الجملة الأولى أن هذا النص هــو فعلاً نص روايتي الأولى.



غمرتني موجة من الغضب. كتابي مشـــاع للعالم بـــأسره دون إذن ولا مقابل مالي! كيف يجرؤون؟! سرقة في وضح النهار! يا لهذه الوقاحة! ثـــم انتعش الأمل في قلبي فجأة. فلربما ليـــس هذا نص الكتاب كاملاً، بل مجرد مقطع مقتطف منه، وهذا أهون الشّرين. تحركت بالمؤشر حتى وصلت نهاية النص، فتبخر أملي الضئيل. كان الكتاب منشورًا بأكمله، من أول كلمـــة إلى آخر كلمة. لم أتعب نفسي بفتـــح الكتابين الآخرين لأنني أعلم يقينًا ما سأجد فيهما.

أمســـكت الفأرة بســـخط أعمى، ونقرت على الزر فعاد بي إلى الصفحة الســـابقة. وضعت المؤشر فوق العنوان الإلكتروني في أسفل الصفحة ثم نقرت. فتح المتصفح صفحة رسالة إلكترونية فارغة، وعنوان الموقع يحتل خانـــة «إلى». حدقت في الصفحة البيضاء للحظـــات وأنا أفكر. حزمت أمري فكتبت «قرصنة» في خانة «العنوان» وشرعت في كتابة الرسالة.

السادة الكرام

وجدت مفاجأة مزعجة جدًا تنتظرني عنـــد زيارتي لموقع «المكتبة الافتراضيـــة». فقد وجـــدت أن رواياتي الثلاثة منشـــورة كاملة ومتاحـــة للجميع. وحيث إنني بصفتـــي صاحب حقوق النشر لم أمنح تصريحًـــا لنشرها في الموقع، فإن هذا يعد من جرائم القرصنة الأدبية التـــي يعاقب عليها القانون. وعليه، فأنا آمركم بســـحب أعمالي من موقعكم بلا تأخير. كما أود إخطاركم بأن محامي سوف يرسل إليكم قريبًا طلب تعويض عن الأضرار التي تسبب بها نشر



كتبي بطريقة غير مشروعة في موقعكم، والمعلومات الخاطئة المهينة التي أضفتموها إلى سيرتي وقائمة أعمالي.

ختمت الرسالة باسمي دون تحية وداع. أعرف أن هذا ليس من الأدب، لكن لم أستطع التفكير بأي عبارة مناسبة. ومن الصعب أن أختمها بطريقة رسمية كأن أقول «المخلص» أو «مع التحية». كما أنني لقيت صعوبة في أن أكتب رسالتي بلهجة حادة، فلم يسبق أن كتبتُ رسالة كهذه. أعتقد أن من الضروري أن تكون الرسالة قاسية ومتوعدة، رغم أنني والحق يقال أشك أنها ستجدي نفعًا. فأقصى ما يُرجى منهم هو أن يزيلوا الصفحة التي تحتوي على كتبي. ولا أتوقع أن أتلقى منهم أي تعويض أبدًا. حتى إنني أشك أن أتلقى منهم أي رد.

لكنني كنتُ مخطئًا.

وصلني الرد فور إرسالي لرسالتي. والتفسير الوحيد لذلك هو أن محرري «المكتبة الافتراضية» يتلقون سيلاً من رسائل الشكوى مثل رسالتي، ولذا فقد أعدّوا ردًا جاهزًا يُرسل آليًا في حال تلقي أي شكوى. وهم على الأرجح لا يتلقون إلا الشكاوى. فلنرَ كيف سيدافعون عن أنفسهم؟

سيدي الفاضل

اسمح لنا أولاً أن نعبر عن تقديرنا العميق لتشريفنا بزيارة «المكتبة الافتراضية».

واسمح لنا بأن نبدد أي مخاوف أو قلق سببناه لك. فهذه ليست نسخة غير قانونية عن مؤلفاتك. صحيحٌ أن الصفحة المخصصة



لـــك تضم نصوص كتبـــك لكن الوصول إليها ليـــس مجانيًا كما ظننت. فليس لأحد ســـواك الحق في زيارتها، كما أنك لا تستطيع الدخـــول إلى الصفحة إلا مرة واحدة فقـــط. وبما أنك قد زرت صفحتـــك بالفعل، فنحـــن نؤكد لك تمامًا أن لا أحد يســـتطيع الدخول إلى الصفحة التي تضم سيرة حياتك، وقائمة مؤلفاتك.
ويمكنك التأكد من ذلك بنفسك إن أردت بأن تحاول العودة إلى صفحتك مرة ثانية.
أما فيما يخص المعلومات التي ترى أنها خاطئة، فنود أن نؤكد لك أنها صحيحة ودقيقة.

مع بالغ الاحترام
المكتبة الافتراضية

إذًا هذه هي خطتهم... يشتكي المؤلف فيزيلون صفحته بسرعة. وبدون الصفحـــة لا يوجد أي دليل على القرصنة. توقعـــت منهم تصرفًا أكثر دهاءً. إن الصفحة ما زالت موجـــودة في ذاكرة جهازي، وهذا دليل لا يمكن تفنيده. كل ما علي هو أن أنقـــر زر «الخلف» وأحفظها. لا شيء أيسر من ذلك. يبـــدو أن «المكتبة الافتراضية» تظـــن أن جهل الكتّاب بالحاسوب مســـتفحل حتى تنطلي عليهم خدعة الوصول المحدود إلى صفحاتهم. هراء! كأن أمرًا كهـــذا يمكن تدبيره أصلاً، أو ما قالوه عن دقة معلوماتهم المختلقة. يا لهذه الأكاذيب!
ضغطت بسرعة زر «الخلف» في شريط الأدوات، لكن شـــيئًا لم أتوقعه



حدث. فبدلاً من أن تظهر الصفحة السابقة، اختفت النافذة التي كانت تحوي رسالة «المكتبة الافتراضية»، وأصبح زر «الخلف» غير فعّال كما لو أن ذاكرة الجهاز أضحت خالية!

نظرت إلى الصورة المعتمة الظاهرة على الشاشة بحيرة ودهشة. لا بد أن الصفحة موجودة. كنت أتصفحها منذ دقائق معدودة، ولم أضغط أي شيء لحذفها. لقد وقع خطأ ما بلا شك. لستُ جاهلاً بالحاسوب، ولكنني أيضًا لست ماهرًا بما يكفي لمعرفة أسرار هذه الآلات العجيبة.

لا يهم... سوف أدخل اسمي ثانية في خانة البحث، فرغم أنهم أبلغوني أن الوصول إلى صفحتي لن يكون متاحًا، فإن من الصعب أن يحجبوا الصفحة بهذه السرعة. لكن للأسف لم يسفر البحث هذه المرة عن أي شيء. قال البرنامج إنه لا يوجد كاتب باسمي في المكتبة التي تضم كل الكتّاب الذين عاشوا في الدنيا.

بدأ التشوش والغيظ يسيطران على تفكيري. شعرت بأنني الأحمق الذي أوقعه تهوره ضحية حيلة رخيصة، حتى إنني تصورت أن أشخاصًا ضاحكين سيداهمون مكتبي في أي لحظة، ليعلنوا أن كل هذا ما هو إلا حلقة محكمة الإعداد من حلقات الكاميرا الخفية في إحدى المحطات التلفزيونية. لكن لم يظهر أحد. تمهلت لدقائق طويلة، ثم فعلت الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله. نقرت مرة ثانية على العنوان الإلكتروني في أسفل الشاشة، وبدأت كتابة رسالة جديدة.



السادة الكرام

لا أعلـم كيف فعلتم ذلك، لكن هذا لا يهم. إن أقل ما يُقال عن دعابتكم، وإن كنتُ أود أن أستعمل كلمةً أغلظَ، هي إنها عديمة الذوق. إن أمثالكم هم من يسيئون إلى الفكرة النبيلة التي أدت إلى اختراع الإنترنت. عار عليكم! لكن لا تنسوا أن عنوان موقعكم ما زال بحوزتي، وسوف أحاول تتبع أثركم من خلاله. صحيح أن وجود مكتبتكم افتراضي، لكن وجودكم حقيقي قطعًا.

وقعت هذه الرسالة باسمي دون أن أكتب تحية في ختامها. انتهى وقت الكياسـة والأخلاق الحميدة، بل كان ينبغي ألا أبدأ «بالسادة الكرام» أيضًا. فالمسؤولون عن هذه المهزلة لا يستحقون الاحترام. كنت متأكدًا أنني لن أتلقى ردًا عندما أرسلت هذه الرسالة. فكيف يمكن أن يردوا على اتهامي لهم؟

وصلني الرد فورًا كما حدث أول مـرة. كان يجب أن تثير سرعة الإجابة ريبتي طبعًا، فهذه الرسـالة ليسـت كالأخرى، ولا يمكن أن يكونوا قد أعدّوا لها ردًا آليًا مسبقًا. ولأن غضبي أعماني، فلم أتمهل فأفكر باستحالة إعداد رد لرسالة لم يتلقوها من قبل قط، رغم أن هذا ليس أول أمر غريب أواجهه في «المكتبة الافتراضية». ما أسرع أن يتقبل الإنسان الأشياء التي لا يجد لها تفسيرًا، خاصةً إن كان الأمر له علاقة بالحاسوب!

سيدي الفاضل

نأسف إن كان الانطباع الذي وقع في نفسك عن موقعنا سيئًا. إن



السـخرية وتدبير المقالب هو أبعد ما يكون عن أذهاننا. إن جميع جهودنا مكرّسة إلى تنفيذ عملنا بجدية ومسؤولية، وهذا هو كل ما نطمح إليه.

مع بالغ الاحترام

المكتبة الافتراضية

كنت أهم بفتح نافذة جديدة لرسـالة ثالثـة إلى عدوي المجهول عندما نطق صـوت العقل في داخلي. بـدأ يقنعني بالعدول عـن ذلك، فماذا سأكسب من المشاركة في هذه السـخافة؟ لقد فعلت كل ما بيدي فعله في هذه الظروف. وقـد أزالوا الصفحة التي تضم مؤلفاتي، وهكذا فإن أي مراسلات أخرى لن تفضي إلى أي نتيجة. لكن الإنسان للأسف لا يصغي دائمًا إلى صوت العقل.

أعتقد أنكم تظنون أنني سأصدق قائمة الكتب التي تدّعون أنها كتبي، رغم أنهـا لم تُكتب بعد. ربما كنتُ سـأعجب بقدراتكم على تبصر الغيب، لـولا ترددكم الواضح في اختيار عامٍ لوفاتي. تسـعة احتمالات! لعلكم تبلغوني متى ما قررتم أيها هو التاريخ الحقيقي. فمعرفة هذه الأمور على وجه الدقة سـوف تسهّل بقية حياتي، مهما طالت أو قصرت.

وهذه المرة لم أختم رسـالتي حتى بتوقيعي، طامحًا في أن يشير هذا ونبرة السخرية الواضحة في الرسالة إلى رأيي فيهم، إن كان يخامرهم أي شك في مدى احتقاري لهم. فأدبهم الجمّ الذي لا ينسجم أبدًا مع أفعالهم قد



بدأ يثير أعصابي. وصلني الرد كالعادة فور إرسال رسالتي، لكن لم يعد هذا يثير عجبي. فحركات خفة اليد تفقد روعتها كلما تكررت، حتى إن لم تكن تعلم كيف أدّاها الساحر.

سيدي الفاضل

لا نستطيع وبكل أسف أن نبلغك بموعد وفاتك. فليس من السهل التنبؤ بالمستقبل. كل الاحتمالات التسعة واردة بنسب متساوية في هذه اللحظة، وسوف يحدد القدر أيها يختار. أما البيبليوغرافية التي قرأتها فتضم جميع مؤلفاتك من جميع مسارات مستقبلك. لكنك لن تؤلف وتنشر تلك الأعمال الثمانية عشرة جميعها في فرع واحد من أفرع حياتك الممتدة، إن شئنا حسن التعبير. فأعمالك القادمة ستكون إما أحد عشر كتابًا كحد أقصى، أو ستة كتب كحد أدنى. ولكنك لم ترها كلها في مكان واحد إلا في موقعنا. وما نأمله هو أن نكون قد صدقنا الوعد الذي قطعناه في شعارنا.

مع بالغ الاحترام

المكتبة الافتراضية

اختفت الرسالة فجأة بمجرد فراغي من قراءتها، وأُغلقت النافذة التي كانت تضمها رغم أنني لم ألمس أي زر. وبعد ثوانٍ حدث الشيء نفسه لنافذة المتصفح. ظلت نافذة واحدة فقط مفتوحة وهي نافذة بريدي الإلكتروني، لكنها لا تحتوي على الرسالة الأصلية التي تلقيتها من



«المكتبة الافتراضية»، رغم أن المفروض أن تكون موجودة فيها لأنني لم أمسحها. تأكدت قبل أن أغلقها ما إذا كانت هناك رسائل جديدة قد وصلت لكنني لم أجد شيئًا.

جلست بلا حراك لفترة طويلة ذاهل البصر أحدّق في الشاشة الفارغة. لم أحاول أن أفهم ما جرى، فأعاجيب الحاسوب تستعصي على فهمي. ظللت أنقب في طيّات ذاكرتي محاولاً بجهد تذكر ما كُتب بالأبيض على خلفية رمادية على يمين صورتي، لكني لم أستطع. وكأن على النص غشاوة زئبقية لا يمكن اختراقها. استسلمت في النهاية وأوقفت جهودي الخاوية. أغلقت الحاسوب، والحنق يجثم ثقيلاً على قلبي.

منذ ذلك الحين وأنا أمحو الرسائل غير المرغوب فيها.. لكن ليس مباشرةً. فأنا أقرأها أولاً، حتى وإن كان واضحًا من الوهلة الأولى أنها لا تستحق أي اهتمام. أشعر بالسخف وأنا أتصفح عروضا إعلانية غير مفهومة، رغم أنني أعلم يقينًا أنني لن أرَ من بينها رسالة مقتضبة ذات خلفية سوداء. لكن هذا هو جزائي والحمل الذي سيثقل كاهلي دون رجاء في التخفيف منه.



المكتبة المنزلية

فتحت صندوق بريدي.

كل ما أجده عادةً في الصندوق هو بعض الفواتير في بداية الشهر، ومع هذا فأنا أتفقده يوميًا بعد عودتي من العمل. وأفتحه كذلك في يومي السبت والأحد في الوقت ذاته كبقية أيام الأسبوع، رغم أن ساعي البريد لا يأتِ بالرسائل في هذين اليومين. مجرد حرص. وكل ثلاثاء، آخذ معي منديلاً لأمسح الغبار الذي يتجمع داخل الصندوق، حتى إن لم يكن بالإمكان رؤيته من الخارج. يجب أن نولي عنايتنا لهذه الأماكن أكثر من اهتمامنا بالأماكن الظاهرة للعين، والناس يميلون غالبًا إلى إهمالها، رغم أنها أفضل شهادة على الدقة الشديدة.

ما كان يجب أن أجد شيئًا في صندوق بريدي، لأن الشهر ما زال في منتصفه. لكن عندما فتحت باب الصندوق الخشبي رأيت كتابًا كبيرًا ذا لون أصفر قاتم استحوذ على مساحة الصندوق كلها. ولو أن شخصًا آخر وقع له هذا الأمر لكثرت تساؤلاته عن هذا الظهور المفاجئ. أولاً مَن أرسله إليّ؟ لم يرسل أحد إلي كتابًا قط. ولماذا يرسل لي أحدهم كتابًا؟ كما أنه لم يكن مغلفًا، ولا يحمل أي بطاقة تشير إلى أنه مرسل إليّ. إذًا لماذا وضعه الساعي في صندوق بريدي؟ والسؤال الأخير: كيف استطاع

أن يدخل الكتاب السميك في فتحة الصندوق الضيقة التي يدخل منها الفواتير؟ يستحيل أن يكون قد أدخلها عبر الفتحة.

لكني لم أندهش. ولم تشغل أي من هذه الأسئلة المقلقة تفكيري. فلقد تعلمت منذ زمن بعيد أن العالم يحفل بالأعاجيب التي لا نجد لها تفسيرًا، ولا جدوى من محاولة حل ألغازها. وماذا سيجني من يحاول سوى البؤس؟ من يا ترى يريد أن يكون تعيسًا بلا داعٍ؟ يجب أن يتقبل الإنسان الظواهر غير العادية كما هي، دون تسويغ أو تفسير، فهذه هي أيسر طريقة للتعايش معها.

لم أتوصل إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن أحالت ظواهر غامضة كثيرة حياتي إلى كتلة من التعاسة. فلنأخذ مثالاً واحدًا، وهو عدد درجات السلم بين الطابق الأرضي وشقتي في الطابق الثاني. من عاداتي أن أعد الدرجات بصوت عالٍ نسبيًا في كل مكان، وفي جميع الظروف، حتى وإن كنت أعلم عدد الدرجات من قبل. فعندما أصعد الدرج يكون عددها 44 درجة دائمًا، وعندما أهبط إلى الطابق الأرضي تصبح 41 درجة فقط. وكنتُ في بداية سكني هنا أتضايق بسبب هذا الفرق، ولم أترك وسيلة إلا جربتها لمحاولة فهم السر.

حاولت أولاً أن أفوق درجات السلم دهاءً. صرتُ أعدّها صامتًا محكمًا إغلاق فمي، كيلا يُعرف ما أفعله. لكن لم تفلح الخطة، فالدرجات عند الصعود أكثر من درجات النزول بثلاث درجات، وكأن في الأمر تحديًا.



ثم جربت عدها وأنا أسير إلى الخلف. ورغم أنني كنت أسير بحرص، فإن ذلك كان صعبًا وخطيرًا. ولسببٍ ما لا أعرفه، فإن نظرات جيراني المحتارة المرتابة كانـــت موجهة إليّ. كنتُ أحييهم بأدب، وأرفع قبعتي، وأومأ برأسي، لكنهم كانوا يهمهمون بالرد منكّسي رؤوســـهم. أحيانًا تكون تصرفات الناس غريبة جدًا.

وأخيرًا خطرت في ذهني فكـــرة عد الدرجات في الظلام. فصرت أغادر شقتي بعد أن ينتصف الليل، مرتديًا خفين من مطاط، كيلا توقظ خطواتي أحدًا. وأنزل إلى الطابق الأرضي دون أن أضيء مصباح الدرج، ثم أعود إلى شـــقتي. نزلت وصعدت، صعدت ثم نزلت حتـــى طلوع الفجر. لم يكن الأمر صعبًا رغم الظلمة الحالكة، لأنني كنتُ أعرف عدد الدرجات بالضبط نزولاً وصعودًا. لكن اســـتعمال الدرج قد يكون خطيرًا حتى لو كنت ترى طريقك بوضوح، فما بالك وأنت تتحرك تحت أســـدال الليل. ولو أنني آمنت بما يمليـــه المنطق، وهو أن عدد الدرجات لا بد أن تكون متساوية في الصعود والهبوط، فستغدو حياتي صعبة.

عندها أســـقط في يدي واستسلمت. لم أعد أحاول أن أبحث عن تفسير لـــكل شيء مهما كان الثمن. فإن كان المنطق صاحبك لا يعني أن تعتمد عليه دائمًا. أحيانًا قد يكون من الأصلح والأجدى أن تتقبل الأعـجوبة، فربما يكون في تقبلك إنقاذًا لروحك، وهذا أمر لا يُســـتهان به. نجوت من الدرج في الظلام، واســـتعدت طمأنينة بالي. وبعد أن بدأت أروّض



فضولي الزائد تحسن نومي، عادت إليّ شهيتي وقلت كآبتي، كما زال تبلدي وهزالي. عجبًا! كيف يصنع قرار واحد بسيط منك رجلاً جديدًا! بدلاً من إضاعة الوقت في التعجب، سحبت الكتاب من صندوق بريدي وتفحصته. كان عنوانه مكتوبًا بأحرف سوداء كبيرة مزخرفة؛ «أدب العالم». لا شيء على الغلاف سوى العنوان، ولا حتى اسم المؤلف. وهذا أيضًا لم يدهشني. فكيف يمكن لعمل كهذا أن يكون له مؤلف؟ تصفحت الكتاب بسرعة، فاكتشفت أن صفحاته أكثر مما يوحي حجمه لأنها كانت رقيقة جدًا بسمك قشرة البصل. كان ذلك أنسب ما يكون للعنوان، فلو أنه محدود في محتواه لما صدق عنوانه. كانت الطبعة رائعة من جميع النواحي، حتى إن شريطًا بنيًا رفيعًا قد ألصق بكعبها ليحدد مكان القراءة.

تأبطت «أدب العالم» وصعدت إلى شقتي. بلغت الدرجة العشرين ثم توقفت. اليوم هو الثلاثاء! نسيت ما اليوم بسبب ظهور الكتاب الغامض في صندوقي. لم أجد بدًا من النزول ثانيةً. لا ينبغي أن يمنع المرءَ شيءٌ عن أداء واجباته، حتى وإن كان هذا المانع حدثًا غامضًا لم يتوقع حصوله. هبطت الدرجات وأنا أخرج من جيب سترتي منديلاً من الحرير الأخضر مخصصًا لتنظيف صندوق البريد.

كانت مفاجأة ثانية تنتظرني عندما فتحت الصندوق. كتاب ثانٍ أصفر اللون ثقيل الغلاف، يحمل العنوان نفسه. لو أن هذا حدث لشخص لم



يألف الأعاجيب لاستبد به الذهول، ولتراجع عن الكتاب خائفًا بقلبٍ مرتعش وجلد مقشعر. وبعد أن يستجمع شتات عقله، يبدأ بالبحث المحموم عن تفسير، لكنه سيعجز عن إيجاد منطق يقنعه. لا أدري ماذا سيفعل بعد ذلك. ربما سيحاول الانتحار.

لكني كنت بالغ الهدوء وغير منزعج على الإطلاق. كل ما فعلته هو أنني أخرجت المجلد الثاني من «أدب العالم»، فتأبّطته مع المجلد الآخر. مسحت صندوق البريد. ومن حسن حظي أنني لم أكن أحتاج سوى يدٍ واحدة لمسحه. ركزت كما هي عادتي على الزوايا السفلية من الصندوق، وهي دائمًا أصعب الأماكن في التنظيف وأكثرها التقاطًا للغبار، حتى ليظن المرء أنها تعانده.

أقفلت باب صندوق البريد، وصعدت إلى الطابق الثاني. هذه المرة لم أبتعد كثيرًا، فلم أكد أرفع قدمي فوق الدرجة الأولى حتى هبطت عليّ فكرة أعادتني إلى الصندوق. فتحته فغشيني الفرح وغمرني. كل إنسان يسعد إن صدق حدسه، خاصةً إن كان حدسًا يتنبأ بالخير. لو أن أحد جيراني مرّ بي في تلك اللحظة، لرأى السعادة تشع من وجهي، ذلك أنني رأيت كتابًا ثالثًا أصفر اللون في الصندوق.

لا أعرف كيف أفسر معرفتي بوجود الكتاب في الصندوق، قد يكون هو حقًا الحدس، لكن أشك أنه الحدس فقط. ففكرة كهذه لم تكن لتخطر في عقل شخص يتهيب الأعاجيب. وهذه ميزة أخرى في عدم الاستسلام



لأحـــكام المنطق. أخذت الكتاب الجديد، لكنني لم أســتطع تأبّط ثلاثة مجلـــدات ثقيلة، فحملتها على ذراعي اليـــسرى. أقفلت الصندوق بعد ذلـــك. انتظرت أمامه ولم أتحرك. وقفت لبضع دقائق أحاول أن أتظاهر بالصبر، ثم فتحت صندوق البريد للمرة الرابعة. ورغم فرحي بظهور الكتاب الرابع فإن حماسي السابق خف قليلاً. فليس من الذوق الافتخار بالنفس، أو المجاهرة بالانتصار.

اضطررت إلى التوقف بعد الكتاب الثالث عشر بســبب وزن الكتب. فقد نسيت في غمرة حماســتي أن الكتب ليست خفيفة كما يظن الناس، خاصةً إن كانت مكوّمة معًا. يجب أن أنقلها إلى الطابق الثاني. وكان من الأيسر لو أنني أنزلتها من الأعلى بدلاً من أن أصعد بها، لأسباب عديدة منها أن الدرجات أقل عـــددًا بالنزول منها عند الصعود. وطريقة حمل الكتب نفســـها كانت متعبة جدًا. فقد انحنيت مادًا ذراعي حتى وصلتا إلى ركبتيّ، لأحمـــل الكتب المصفوفة واحدًا فوق الآخر، وذقني يضغط على أعلاها ليحفظ توازنها، ما يعني أن رأسي مشدود إلى الأعلى. نظرت حولي بتوتر. لا أريد أن يراني أحد من جيراني وأنا أحمل نسخًا كثيرة من الكتاب نفسه. ماذا سيظنون بي؟ والناس بطبعهم يميلون إلى التسرع في إصدار أحكامهم.

وصلت إلى شـــقتي أخيرًا متقطـــع الأنفاس. واجهتنـــي صعوبة في فتح الأقفـــال الثلاثة، وعمود الكتب مســـتند إلى ذراع واحدة فقط. وأصعب



الأقفال فتحًا كان القفل السفلي القريب من عتبة الباب، فقد اضطررت إلى التقرفص محافظًا على توازني بمشقة. ولو أن الكتب كانت غير هذه التي أحملها، لوضعتها على الأرض. ولم أكن قلقًا من تعرضها للاتساخ، لأنني أنظف مدخل شقتي بدقة متناهية، لكنني أحسست أن وضع مجلدات «أدب العالم» على البلاط البارد إهانة لها، بل تكاد تكون انتهاكًا لحرمتها.

عندما دخلت الشقة واجهتني مشكلة أخرى. أين أضع الكتب؟ ترددت ووقفت بجوار الباب لحظات، لا أعرف ماذا أفعل بها. وضعتها في النهاية على الطاولة إلى أن أتدبر الأمر. إن أفضل حل هو وضعها على رف الكتب، فهذا هو المكان الطبيعي لها. لكن للأسف ليس لدي رف كتب. وما حاجتي له وأنا لا أملك أي كتاب؟

لم أنشئ مكتبة في شقتي منذ أن انتقلت إليها. وهي شقة صغيرة، فيها غرفة واحدة وردهة ومطبخ وحمام، وجميعها ضيقة متناهية الصغر، حتى إنك لا تستطيع الالتفات دون أن تخبط ذراعيك بالجدران. ومن المعروف أن الكتب تبتلع المساحات ابتلاعًا. وهذا قانون لا يمكن تبديله، فمهما أعطيت للكتب من مساحة فإنها لا تكتفي أبدًا. تحتل في البداية الجدران، ثم تنتشر لتشغل كل حيز يمكن أن يحتويها، حتى لا يبقى سوى السقف الناجي الوحيد من هذا الغزو. ثم تتوالد الكتب الجديدة، ولا تحتمل عندئذ فكرة التخلص من أي كتاب لديك أبدًا. وهكذا تزيح الكتب عن طريقها كل شيء غيرها ببطء وخفية، كأنها نهر منساب.



ليس لــدي خيار آخر. وصلــت الكتب إلى داخل شــقتي، ويجب أن أضعها في مكان مــا. لا يمكن أن أتركها في صندوق بريدي، فأنا رجل ناضج ومسؤول. لا يمكن أن أدس رأسي في الرمال، وأتظاهر بأنها غير موجودة. بل إن في تجاهلي لها ما قد يثير شــكوك ســاعي البريد، عندما يحاول أن يدس فواتيري في الصندوق ولا يســتطيع لأنه ممتلئ. سوف يتساءل ما منعني من أخذ بريدي؟ وقد يصعد إلى شقتي ويسألني. ماذا أجيبه؟ لا تجاهل الكتــب حل غير وارد على الإطلاق. لم يكن أمامي سوى إحضارها إلى الشقة، وسوف أفكر فيما بعد بما أفعله بها.

إن الســؤال الآن هو كيف أحمل بقية الكتب، على افتراض أن ثمة المزيد منهــا. لا يمكنني أن أفعل ما فعلته في المرة الأولى، لم تكن تلك الطريقة مناســبة. يجب أن أجد شــيئًا أحمل به الكتب. نظــرت حولي في أنحاء الغرفة، فتذكرت شيئًا يناسب حاجتي، رغم أن عينيّ لم ترياه. أخرجت من خزانتي حقيبة ســفر كبيرة ذات دعائم نحاســية في زواياها. كانت تكفي الكثير من الكتب، وهذا هو المطلوب، لكنها ســتكون ثقيلة جدًا إن امتلأت. أحيانًا يطعمك القدر باليمنى ويخنقك باليسرى.

لم يكن ســهلاً أبدًا الصعود بستة وخمســين مجلدًا من «أدب العالم» إلى الطابــق الثاني مــرة واحدة. اضطــررت إلى حمــل ذراع الحقيبة بيدي الاثنتين. وعندمــا وصلت الدرجة الثامنة والعشريــن، أدركت أنه ما كان يجــب أن أثقل نفسي بهذا الحمل العظيم. ولكن لو أنني قللت عدد



الكتب، لازداد عدد مرات صعودي ونزولي، مما يعني أنني لم أستفد شيئًا. لو أن في المبنى مصعدًا لما عانيت كثيرًا. لذا لم أجد أمامي سوى هذا الحل لجلب الكتب إلى شقتي.

أخرجت الكتب من الحقيبة، وبدأت بوضعها بجانب النسخ الثلاثة عشرة السابقة، فرأيت مشكلة جديدة تطل برأسها. لن تحتمل أرجل الطاولة الصغيرة وزن حمل ثالث من الكتب. وماذا أصنع حينها؟ يجب أن أضع خطة قبل أن أكمل مهمتي. لا يمكن أن أتابع العمل متخبطًا. ولا أدري كم من الكتب ستظهر في صندوق بريدي، قد تكون بضع مجلدات، وقد تكون المئات. وأنا أرجح الخيار الثاني. فهذا أدب العالم، ولا شك أن المجلدات لا حصر لها حتى لو طُبعت على قشر البصل. يجب أن أحضر نفسي لأسوأ الاحتمالات.

كان أثاث حجرتي اليتيمة قليلاً، وهذا من حظي وحسن طالعي. لدي طاولة، وخزانة ملابس، وأربعة كراسي، وسرير، ومنضدة، وطاولة صغيرة بجانب سريري. دفعتها كلها إلى إحدى الزوايا، فأفرغت ثلثي الحجرة تقريبًا، فكان لذلك أثر معاكس، حيث أصبحت الجهة اليمنى من الباب ضيقة وعاجة بالأثاث. لكنني لم أتضايق، فالظروف الاستثنائية توجب على المرء أن يقدم تضحياتٍ لا يعكرها الشكوى. وأنا بطبيعتي لا أعبأ كثيرًا بالراحة.

فرشت الأرض في الناحية الخالية من الغرفة بأوراق الجرائد. كانت

الأرض نظيفة طبعًا، لكنني شعرت أن في فرشها احترامًا أكبر. ثم شرعت أنقل الكتب، وكان ذلك يتطلب شيئًا من التخطيط. فبدأت أرتبها في أبعد الزوايا عن الباب، وهو المكان الذي كنت سأبدأ منه لو أنني كنت أريد تلميع الأرض مثلاً. ارتفع عمود مكون من أربعين مجلدًا بالضبط من الأرض إلى السقف. استخدمت كرسيًا لأقف عليه كي أضع الكتب السبعة الأخيرة. كان العمود الأصفر الطويل سيتداعى في الغالب، لولا أنه مستند إلى جدارين، ومثبت من الأعلى بالكتاب الأخير الذي حشرته بقوة. نزلت عن الكرسي، وتراجعت إلى الوراء أتأمل المنظر بإعجاب.

بعد أن حددت إستراتيجيتي، جاء وقت العمل. لا وقت للتردد. من يدري كم سيستمر الأمر؟ أمسكت الحقيبة الخالية، ونزلت إلى الطابق السفلي. لقد بسّطتُ العملية ليتسنى لي العمل بأسرع وقت ممكن. كنتُ أخرج المجلد الواحد من صندوق البريد، فأغلق بابه للحظة قصيرة ثم أفتحه، لم يكن هناك حاجة لإقفاله. فالمجلد الجديد ينتظرني بداخله. أصبحت ماهرًا في ترتيب الكتب في الحقيبة، حتى وسعت ثمانية وخمسين مجلدًا.

مرّ جيراني عدة مرات، لكن لم يلتفت أيٌّ منهم إليّ. كل ما فعلوه هو أنهم أشاحوا أبصارهم عني وسارعوا في خطاهم. لا أفهم البشر أحيانًا. لا أريد أن أقول إن عدم اهتمامهم هذا لم يناسبني، فأنا لا أود أن أسوّغ لهم تصرفاتي، بل ولست مجبرًا على أن أجيب عن تساؤلاتهم. لكن مع ذلك



فإن لا مبالاتهم لا تُغتفر. ماذا لو أن شـخصًا ذا نية خبيثة أو عقل مختل كان في مـكاني؟ ونحن نرى في هذه الأيام أشـكالاً عدة من المعتوهين يتسكعون في المجمعات السكنية المحترمة.

بدأ التعب ينشـب بي أظفاره مع مرور الوقت. لم أسـتطع بعد الحقيبة السـابعة والعشرين أن أصل إلى الطابق الثاني دون أن آخذ اسـتراحة قصـيرة. وكان من المنطقي أن آخذ اسـتراحة في المنتصف بعد الدرجة الثانية والعشرين، خاصةً أنها تقع في الطابق الأول. لكن الهلاك لحقني بعد الحقيبة التاسعة والأربعين، فقررت حينئذ أن آخذ استراحة ثانية. لا يمكن تقسيم أربع وأربعين درجة على ثلاثة أجزاء بالتساوي. فلجأت إلى حلٍ مزعـج. صرت في البداية أتوقف برهة بعد الدرجة الخامسـة عـشرة، وأتوقف مرة ثانية بعد الدرجة الثلاثـين، وهكذا لا يتبقى إلا أربع عشرة درجة في الثلث الأخير من طريقي. وكان عدم التساوي في التوزيع يزعجني، إلى أن حملت الحقيبة الثالثة والسـتين حيث احتجت بعدها إلى اسـتراحة رابعة. والحمد لله أن أربعة وأربعين تقبل القسـمة على أربعة. فصرت آخذ اسـتراحة بعد كل إحدى عشرة درجة، أي في كل بسطة من بسطات الدرج، وفي الطابق الأول.

صعدت بالحقيبة الثانية والتسعين، فملأت محتوياتها المكان الذي أفرغته للكتب. جدار ضخم أصفر قاتم اللـون انتصب أمامي. هذا هو «أدب العالم» بكل عظمة وبهاء. كان الليل قد هبط منذ وقت طويل، لكنني مع



هذا اندهشت عندما نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى 2:17 صباحًا. استطعت أن أعمل في جوف الليل دون أن أزعج جيراني لأنني لم أضيء مصباح الدرج، وبذلت أقصى جهدي لأحافظ على هدوئي، حتى إنني خلعت حذائي. وكان مدخل الحمام، حيث أحتفظ بحذائي الخفيف، مغلقًا بأكوام الكتب، فبقيت مرتديًا جواربي دون أن أخشى إصابتي بالزكام لأن الجو كان دافئًا. ربما كان من الأفضل لو أنني غيرت ملابسي وارتديت ملابس مناسبة لهذه المهمة، لكنني نسيت في غمرة استعجالي. وقد تجعدت البدلة التي ارتديتها إلى العمل في ذلك الصباح من الحمل والنقل، وتبلل قميصها بالعرق، وتراخت ربطة عنقي. لكنني على الأقل لم أكن أرتدي قبعتي.

لم أرَ نهاية لعذابي. مهما أفرغت صندوق البريد، أجده ممتلئًا عندما أفتحه مرة ثانية. لم أجد خيارًا آخر إلا أن أبحث عن مساحة إضافية للكتب الجديدة. تمهلت وسألت نفسي: أي قطعة من قطع أثاثي يمكنني الاستغناء عنها؟ وقررت أن الإجابة هي السرير، لأنني قطعًا لن أحتاجه تلك الليلة، وأنا الذي صعب علي اقتطاع استراحة قصيرة من وقت العمل. كان السرير ثقيلاً رغم صغره، وكنت أعزّي نفسي بأنه سيكون أثقل بكثير لو أنني كنت أحمله في الاتجاه المعاكس. أخذت السرير إلى المساحة المخصصة لي في مخزن القبو، وكانت رغم ضيقها خالية، لأني لم أملك شيئًا أحفظه فيها. أوقفت السرير عموديًا متوقعًا

أنني سأضطر عاجلاً أم آجلاً إلى وضع شيء آخر بجانبه.

بعد الساعة الخامسة صباحًا، وبعد الحقيبة رقم (119)، تجسدت مخاوفي أمامي. فالفراغ الذي خلّفه إزالة السرير قد امتلأ حتى السقف بمجلدات صفراء. أخذتني الحيرة المؤلمة بالتفكير بما سأنزله هذه المرة إلى القبو، ثم أدركت أن هذا لا يهم في شيء. لماذا أخدع نفسي؟ كل قطعة من قطع الأثاث ستنتقل إلى القبو، فمن المنطقي إذًا أن أنقلها كلها مرة واحدة. وأنسب الأوقات هو الآن والناس نيام. أستطيع أن أحملها دون أن يلاحظني أحد، وبذلك أتجنب نظرات جيراني المتطفلة.

لم أجد مشقةً في نقل الطاولة والكراسي والمنضدة وطاولة السرير، لكن خزانة الملابس كانت أكبر تحدٍ، لا بسبب ثقلها فحسب، بل أيضًا بسبب حجمها. ترنحتُ وتمايلت تحت وطأة جِرمها الضخم، أحاول الاحتفاظ بتوازني، وكدت أقع مرتين. كنت أحملها فوق ظهري معظم الوقت، متجنبًا إصدار أي ضوضاء، رغم الصرير الذي أفلت منها ولم أستطع كتمه. لعل الحظ كان في جانبي ولم أوقظ أحدًا، فلم يخرج أحد من شقته ليرى ما يحدث.

عندما وصلت إلى القبو أحسست أن كل جهدي ذهب أدراج الرياح. فإدخال الخزانة عبر الباب الضيق تطلّب براعةً في المناورة والتحريك. ومع كل قطع الأثاث المحشورة في المخزن الصغير لا أعتقد أني سأستطيع زحزحة أي منها دون هدم الجدار الفاصل.



امتلأت كل المســاحات الفارغــة المتبقية في الغرفة مــع اقتراب طلوع الفجر. وقبل أن أسدّ مدخل الحمام بالكتب، قضيت لحظات في الداخل، فإما أن أدخل الآن وإلا فلن أدخل أبدًا. خرجت من الحمام أكثر نشاطًا وانتعاشًــا، رغم أني لم أســتطع محو آثار تعب الليلة كلها. لكنني كنت أرجو أن مظهري لن يسبب صدمة في أنفس جيراني عندما أقابلهم على درجات السلم. ارتديت حذائي وقبعتي كي أحسّن مظهري قليلاً.

وعندمــا حان وقت تغطية مدخــل المطبخ بالكتــب، فكرت بإخراج الثلاجة والفرن الصغير منه، وربما الأطباق وأدوات المائدة أيضًا. لكن سرعــان ما تخليت عن هــذه الفكرة. فلم أكن أعرف مــاذا أفعل بهذه الأجهزة الثقيلــة، ولم يعد في مخزن القبو مكانًا لها. ولا يمكن كذلك أن أتركها أمام مدخل الشقة. لا فلتبقَ مكانها في المطبخ. لن تعيقني حتى وإن لم أستطع الوصول إليها.

في الساعة 8:26 صباحًا، وبعد (143) حملاً من أحمال الحقيبة، امتلأت الغرفة حتى لم يبقَ منها شبرًا خاليًا. ثمانية آلاف وثلاثمائة وخمسة كتب! كان منظرهــا مهيبًا. حشرتُ الكتاب الأخير مكانه، ووقفت في صمت جليل مقلبًا عيني فيها بإعجاب. هــل رأى أحد من قبل في أي مكان، وفي أي زمان، أدب العالم بأكمله مجتمعًا في مكان ضيق كهذا؟ شــعرت بأنفاسي تتسارع. كانت النتيجة في النهاية تستحق كل ذاك الجهد الجهيد. لكــن لم يكن عندي وقت لأتأمل المنظر. يجب أن أذهب إلى عملي. ففي



كل السـنوات التي قضيتها في وظيفتي لم أتأخر قط. عندما أعود عصرًا إلى منزلي سـأمتع ناظري بمرأى الكتب حتى أرتوي. سوف أجلس في الردهة أمـام باب الغرفة المفتوح، وأحدق في هذا الكنز الأصفر وماذا يحتاج المرء غير هذا؟ كرسي، ربما؟

لا لا أحتاج إلى كرسي. إن احتياجاتي متواضعة منذ عرفت نفسي. ولقد تدبرت أمري دون الحاجة إلى الأشـياء الأخرى، وسوف أتدبر أمري بدون كرسي. لـن أجلس على الأرض الجرداء عـلى أية حال، فعندي سجادة من الصوف الخالص.

نزلـت إلى الطابـق الأرضي، فتحت باب صندوق البريـد. كان اليوم أربعـاء، ومـع ذلك أخرجـت المنديـل الأخضر ومسـحت جوف الصندوق. لم أكن دقيقًا في التنظيف كعادتي نظرًا لاسـتعجالي. صحيح أن الكتب نظيفة وخاصة إن كانت جديدة، لكن مئات المجلدات مرّت عبر هذا الصندوق. أنا متأكد أنها تركت وراءها شيئًا من الغبار.


مكتبة
الفكر
الجديد

المكتبة الليلية

ليتنــي لم أذهب إلى الســينما أولاً لو كنت أعلم أن الفيلم سيســتغرق ســاعتين، لقصدت المكتبة قبل الســينما. قد يكون منظري غريبًا، وأنا أحتضــن كتبًا في مقعدي أثناء مشــاهدة الفيلم، لكن أشــك أن أحدًا سيلاحظ. ما أن حلت السابعة والنصف، إلا وبدأت أتململ في جلستي، وأقرّب معصمي الأيسر نحو شاشة العرض لأرى ساعتي. كانت قصة الفيلم أطول مما ينبغي في رأيي، رغم أن حبكتها مشوّقة. راودتني نفسي بالمغادرة قبل نهايته،-لولا أنني كنت أجلس في منتصف الصف، وقيامي من مقعدي سيضايق من حولي.

عندما انتهى الفيلم أخيرًا عند الثامنة إلا عشرًا ســارعت بالخروج من السينما. رأيت نظرات مرتادي الســينما المؤنّبة مصوّبة نحوي، وتناهت إلى أذني همهماتهم الموبخة، وأنا أشق معتذرًا طريقي بين الحشد الأقرب إلى المخرج. قد ألحق بالمكتبة إن أسرعت، فهي ليســت بعيدة عن صالة الســينما. صحيح أنها تغلق أبوابها عنــد الثامنة، لكننــي من مرتاديها الدائمين، وقد يستقبلني طاقمها بشيء من التحمل وسعة الصدر.

لم يكــن ليعني لي ذهابي إلى المكتبة من عدمــه طبعًا لولا أن اليوم جمعة، والمكتبة مغلقة في يومي السبت والأحد. أي أنني إن لم أذهب اليوم فلن



أجد ما أقرأه خلال نهاية الأسبوع. وهذا احتمال لا أطيق التفكير فيه. فأنا أعيش وحيدًا، وأملك وقت فراغ طويل يجب أن أشغله بطريقة أو بأخرى. وقد اكتشفتُ منذ زمن أن القراءة أكثر نفعًا ومتعةً من تجميد عقلي وحواسي أمام التلفاز.

أفزعتني فكرة قضاء اليومين القادمين أمام التلفاز، متقلبًا بين الحنق والسأم وتأنيب الذات، حتى دفعتني إلى الجري. ولم يكن الجري سهلاً لأن السماء قد بدأت تثلج عندما كنت في السينما. كانت الرياح ترشق قطع الثلج الكبيرة الثخينة على وجهي، وأنا أحث خطاي إلى الأمام. فاضطررت إلى فتح مظلتي أمامي لأدرأ عن وجهي هجمات الثلج. وتباطأت خطواتي لأنني لم أكن أرى موطأ قدمي، ومن حسن طالعي أنني أعرف الطريق، وأن الأرصفة في ذاك الطقس كانت شبه خالية من الناس.

وصلت إلى المكتبة العامة بعد الثامنة بثلاث دقائق. عرفت الوقت لأنني نظرت عبر زجاج مدخلها، فرأيت الساعة الكبيرة المتدلية من سقف البهو. كانت الأنوار ما زالت مضاءة، لكن إن كان الباب موصدًا فلن تفيد علاقتي الطيبة بأمناء المكتبة في فتحه. أمسكت مقبض الباب البارد في خوف ودفعته. زفرت بارتياح عندما انفتح الباب. دخلت بسرعة، واستدرت لأنفض عن مظلتي ندف الثلج، ثم أغلقت الباب خلفي.

أمضيت بضع دقائق في البهو أنفض قطع الثلج عن شعري، وأضرب ممسحة الأرجل بقدمي لأزيح عنهما ما علق منه. أخرجت منديلاً



لأمســح قطرات الماء عن نظارتي. وضعــت مظلتي في حامل المظلات النحاسي بجانب الباب، ثم صعــدت مسرعًا الدرج الضيق المؤدي إلى قاعة المكتبة الرئيسية.

كانت المكتبة دافئة، فتجمع الندى على نظارتي الباردة وأنا أصعد الدرج. وعندما دخلت إلى الصالة ذات الأضواء الساطعة اضطررت إلى خلعها ومســحها مرة أخرى. ورغم أن قصر نظري شــديد، فإنني استطعت الســير وأنا أمســح نظارتي، لأن الردهات العريضة المفروشة بالسجاد الأحمر القاتم كانت تخلو من الأثاث. فالطاولات والكراسي على يساري بجانــب النوافذ العالية. تقدمت بخطوات واســعة تجــاه منضدة أمين المكتبة، في الطرف المقابل من الحجرة، وأنا أحمل نظارتي والمنديل بيدي. وفي الجهة اليمنى ارتفعت أرفف مليئة بالمراجع المتنوعة والمصنفات التي بدت لي بسبب رؤيتي المشوّشة ككتل داكنة بارزة من الجدران.

وضعت نظــارتي على عيني في اللحظة التي وصلت فيها إلى مكان أمين المكتبــة. كنت قد هيــأت في عقلي عذرًا لطيفًا أســوّغ به تأخري. عذر تصحبه ابتسامة مناســبة تلّطف مزاج أمين المكتبة. فالناس عادةً يحبون مســاعدة الآخرين في هذه الظروف، حتــى إن كانوا يظنون أن الطلب مبالغ فيه، إلا من كان بطبيعته حاد الطباع. ربما لأنهم بذلك يستطيعون أن يفخروا فيما بعد بالمعروف الذي أســدوه. لكــن لم أجد أحدًا أقدم لــه عذري. لم يكن أحدًا يجلس خلف المنضــدة. ولو أنني كنت أرتدي



نظارتي قبل أن أقترب منها للاحظت خلو المكان.

تلفّت في المكان بحيرة. ربما كنت قد مررت بأمين المكتبة وأنا مشغول بمسح نظارتي دون أن أراه. لكن لم أجد أحدًا خلفي، والقاعة الطويلة خالية تمامًا. أشك بأنني مررت به ولم ألاحظه. وإن كنت لم ألاحظه، فإنه سوف يراني ويكلمني من كل بد. التفتّ إلى المنضدة مرة أخرى مترددًا، ثم فهمت ما حدث. لا بد أن موظفي المكتبة لم يتوقعوا مجيء أحد، فذهبوا إلى إحدى الغرف الخلفية تأهبًا للعودة إلى منازلهم.

سعلت بصوت عالٍ، لكن لم يظهر أي شخص من الباب الجانبي الموارب، وهو المدخل الرئيسي إلى الغرفة الخلفية. كانت الغرفة التي يفضي إليها ذاك الباب مضاءة، لكني لم أسمع أصواتًا من تلك الناحية. قلت: «مساء الخير». انتظرت قليلاً، ثم أعدت ما قلته بصوت أعلى. لا رد وصلني، والصمت يسود المكتبة.

وبينما أنا واقف لا أدري ما أفعل، انطفأت الأنوار فجأة. أحاطني الظلام من كل مكان، والنوافذ التي كانت شبه معتمة قبل ثوانٍ أصبحت هي المصدر الوحيد للضوء. تسرّبت من خلالها أنوار الشارع بوهجها البرتقالي، رغم أن طبقات الثلج خففت من سطوعها. نظرت حولي وعيناي تتأقلمان مع الظلام الجديد، أحاول جاهدًا أن أفهم ما جرى.

عندها، من مكان ما في الطابق السفلي، سمعت صوتًا حديديًا حادًا كصوت مفتاح يُدار في قفل. فهمت ما يجري متأخرًا. لا يحتاج طاقم



المكتبة أن يعبروا القاعة الرئيسية ليصلوا إلى الطابق الأرضي. فلا بد أنهم وصلوا إلى الدرج من طريق آخر، وأنا واقف أنتظر أمام منضدة أمين المكتبة. أو ربما أنهم استقلّوا المصعد. ويبدو أنهم أطفأوا التيار الكهربائي عن المبنى من المولد المركزي، وهذا إجراء احترازي معقول في منشأة كالمكتبة.

هتفت: «انتظروا!» وبدأت بالجري. أصبحت السجادة في الظلام شريطًا طويلاً داكنًا، سمح لي بأن أتحرك بسرعة رغم أنه لا يوجد ضوء. لكنني اضطررت إلى التحرك ببطء عندما وصلت إلى الدرج، فالظلام كان أشدّ في البهو عديم النوافذ. ولم يكن ثمة ضوء إلا ما تسرب عبر باب المدخل الزجاجي. تحسست بيدي أبحث عن حاجز السلم عن يميني، فأمسكته بقوة وبدأت بالنزول، لكنني للأسف تأخرت. لم يكن هناك أحد عند باب المدخل.

أدرت مقبض الباب في كفي ودفعته، لكن هذه المرة لم أشعر بالارتياح، بل بالغضب. كنت غاضبًا من أمناء المكتبة. كيف يقفلون المدخل ثم يغادرون، دون أن يتأكدوا أن لا أحد في الداخل؟ صحيح أنني دخلت بعد الساعات المسموحة، ولكنهم ما زالوا على خطأ. ماذا لو أن لصًا دخل المكتبة؟ إن من الواضح أن في نظام الأمان في المكتبة عيوبًا كثيرة. لكن اللوم في الحقيقة يلحقني أنا أيضًا فيما حدث. فلطالما احتقرت الأشخاص الذين يؤجلون أعمالهم حتى آخر لحظة، وهذا ما فعلته



بالضبط باستعجالي. وكل هذا من أجل فيلم كان يمكنني أن أشاهده في وقت لاحق. بل وإن لم أشاهده بتاتًا فإنني لن أخسر شيئًا أبدًا.

هذا السخط والتأنيب لن ينفعني الآن. يجب أن أجد مخرجًا من هذا المبنى. أصابتني فكرة احتجازي في المكتبة حتى صباح الإثنين بالفزع. لا يمكن أن أحتمل أبدًا، رغم أنني لن أصاب بالملل طبعًا وأنا محاط بكل هذه الكتب. لكن قد تكون التدفئة قد أطفئت مع إغلاق التيار الكهربائي. قد يزداد المبنى برودةً بمرور الساعات. قد يجدونني متجمدًا بعد يومين ونصف رغم أنني أرتدي معطفًا دافئًا. وماذا عن الضروريات الأخرى؟ لن أموت ظمأً، فدورات المياه تعمل على الأرجح، لكن كيف أقضي ستين ساعةً دون طعام؟ وأين أنام؟ لا يمكن أن أجلس وأقرأ طوال الوقت. هززت رأسي ويدي ما زالت تمسك بمقبض الباب، كأنني أتوقع منه أن يتزحزح من مكانه. لابد أن هناك حلاً.

ماذا كنت سأفعل لو أنني لص؟ اللص لن ينتظر قدوم يوم الإثنين ليفتح له أحد الباب. ماذا سيفعل اللص في مكاني؟

فكرت في الأمر لحظات. كل الأفكار التي راودتني كانت إما عنيفة جدًا، أو خطرة جدًا، أو صعبة التنفيذ، أو تتطلب أدوات ليست في حوزتي. يبدو أنني في النهاية لن أعتمد على مواهبي اللصوصية الدفينة. ثم خطرت لي الفكرة. الحل البسيط الذي لن يخطر على بال لص، ولا في



أحلامه حتى. كل ما عليّ فعله هو العودة إلى منضدة أمين المكتبة واستعمال الهاتف. الهواتف تعمل حتى لو انقطعت الكهرباء. سأتصل بالشرطة، وأشرح لهم مأزقي. قد يظنون أن في المكالمة خدعة وإضاعة لوقتهم، لكن حتى لو لم يصدقونني فورًا فسأظل أتصل إلى أن يرسلوا أحدًا ليتأكدوا من صدق قولي. وبعد ذلك سيكون الفرج قريبًا. سوف يأخذونني في الغالب إلى قسم الشرطة لأخذ إفادتي. لكنني مستعد لمواجهة بعض المتاعب مع الشرطة على احتمال الحبس في المكتبة ليومين ونصف.

حركت قدمي بحذر في الظلام الدامس الذي اكتنفني عندما أدرت ظهري إلى المدخل. صعدت الدرج، ويدي تقبض على الحاجز بقوة. ورغم أنني لم أكن أرى شيئًا فإن الصعود لم يكن صعبًا، وخاصة أنني لم أكن مستعجلاً، وأنا أعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام عندما أصل إلى القاعة الرئيسية. وهذا حقًا ما أحسست به. أحسست أن كل شيء على ما يرام. ليس بسبب الضوء الخافت الذي ينساب عبر النوافذ فحسب، بل أيضًا بسبب المصباح المضاء على منضدة أمين المكتبة. كان نوره ضعيفًا يحجبه الغطاء البلاستيكي الأخضر فوقه، ولكنه في تلك اللحظة كان في عيني من أشد الأضواء سطوعًا، كأنه مصباح كشّاف.

تجمّدت قدماي فجأة عند مدخل القاعة الرئيسية مشدوهًا. كيف يعمل مصباح المكتب إذا كانت الكهرباء منقطعة عن المبنى بأكمله؟ ربما أكون قد تسرّعت في تقديري للموقف. يبدو أن موظفي المكتبة أطفأوا أضواء



الســقف فقط قبل خروجهم. لم أجد تفسيرًا ثانيًا. لكن حتى لو أن هذا صحيح، لابد أن أحدًا قد أنار هــذا المصباح، لأنه لم يكن مضاءً عندما غادرت الحجرة، ولا أحد غيري في المكتبة. أم أنني مخطئ في هذا أيضًا؟ فُتح باب الغرفة الخلفية كما لو أنه يجيب عن ســؤالي، ودخل شــخص ما ووقف خلف المنضدة. كنت بعيدًا إلى حد ما، لكنني اســتطعت أن أتبين رجــلاً طويلاً نحيلاً في منتصف العمر، يرتــدي بدلة داكنة. اتجه إلى كــرسي أمين المكتبة فجلس مركزًا انتباهه على شيء ما أمامه. لم يرفع رأســه أو ينتبه لوجودي. حتى لو أنه نظر باتجاهي فلن يراني بســهولة، لأنني متشح بالظلام حولي.

ظللــت مختبئًا أحاول أن أفهم سر وجود الرجل هنا. لم يســتغرق عقلي وقتًا طويلاً ليصل إلى تفسير. هذا هو الحارس الليلي طبعًا. لِمَ لم أفكر بهذا من قبل؟ تنهدت بارتياح، انتهت متاعبي أخيرًا. لن أضطر إلى الاتصال بالشرطة. سأخبر الرجل بما حدث، ولن يجد سببًا لتكذيبي. ويمكنه أن يرجع إلى سجلات المكتبة بكل ســهولة فيرى بنفسه أنني من أعضائها المواظبين على ارتيادها منذ أعوام طويلة.

ومع هذا قررت أن أتصرف بحذر في هذه الظروف. فالحارس الليلي لن يتوقع طبعًا أن يخرج عليه أحد من الظلام. ومن يدري كيف سيتصرف؟ قد يصوّب مسدسه نحوي، وهذا ما كان ينقصني!

سعلت وتقدمت تجاهه ببطء. قلت بصوت معتدل مبتهج:



-مساء الخير.

توقعت أن يقف، بل أن يهبّ واقفًا بفزع من مقعده. وكنت سأتوقف في هذه الحالة، فأسمح له بأن يتقدم نحوي، وأن يستجمع أعصابه ويفهم الموقف. أي حركة مفاجئة حتى وإن كانت مجرد السير تجاهه غير مستحسنة على الإطلاق، فقد يرى أن في حركتي تهديدًا له. لكن ما حدث خالف كل توقعاتي. رفع الحارس بصره لينظر إليّ، ورد تحيتي دون أن يشوب قسماته أي اندهاش، وكأن ظهوري المفاجئ أمر طبيعي تمامًا.

-مساء النور. كيف أساعدك؟

تقدمت من المنضدة. كان للرجل شارب سميك أسود مقصوص بعناية، وقد بدأ الشيب يغزو شعره. كانت بدلته من أفخر الأقمشة. ولون المنديل البارز من جيب صدرها يطابق لون ربطة عنقه. لا أدعي أنني أعرف الزي المعتاد لحراس المناوبة الليلية في المكتبات العامة، لكنني قطعًا لم أتوقع هذا! كأن مدير المكتبة نفسه بكامل أناقته يقف أمامي.

-أود أن أشرح لك. لقد تأخرتُ قليلاً...

قاطعني الرجل الجالس خلف المنضدة:

-لم تتأخر على الإطلاق. نحن نعمل في الليل. هذه هي المكتبة الليلية.

حدّقت فيه بحيرة.

-المكتبة الليلية؟ لم أكن أعلم أن ثمة مكتبات ليلية.

-بل يوجد. وهي موجودة منذ زمن طويل. رغم أن قلة من يعرفون



عنا. أتبحث عن كتاب ما؟

-أجل. أنا أستمتع بالقراءة خلال نهاية الأسبوع. وكنت أخشى ألا يكون لدي ما أقرأه هذه المرة. إن من الرائع أن تكون الكتب متوافرة في الليل أيضًا.

-طبعًا متوافرة. رغم أن تشكيلة الكتب التي نعرضها تختلف عن الكتب المعروضة في فترة النهار. فليس لدينا سوى كتب الحياة.

ظننتُ أنني أسات فهم ما قال.

-عفوًا؟

-كتب الحياة. ألم تسمع عنها؟

هززت رأسي.

-لا لم أسمع عنها.

-هذا مؤسف. أنصحك بأن تقرأها إذًا. إنها قراءة مشوقة جدًا. فبخلاف ما هو شائع بين الناس، فإن الحياة الحقيقية أكثر تشويقًا وإثارة من تلك المختلقة.

-حياة من؟

-حياة كل إنسان.

-ماذا تقصد بكل إنسان؟

-أقصد ما قلته حرفيًا. حياة كل البشر الذين عاشوا في الدنيا.

تفرست لحظات في وجه الرجل الجالس خلف المنضدة. قلت:

-لابد أنها حيوات كثيرة.

-صحيح. مئة وتسعة مليارات، وأربعمائة وثلاثة وثمانون مليونًا، ومئتان وست وخمسون ألفًا، وسبعمائة وعشر حيوات. منذ اللحظة التي دخلتَ فيها إلى المكتبة.

لم أحر جوابًا. تمنيت أن يفسر الغريب صمتي بأنه ذهول من المعلومات التي قالها. ما الذي يجري هنا؟ من هذا الرجل؟ إنه ليس الحارس الليلي، أنا واثق من هذا. لكنني أشك أيضًا بادعائه أنه أمين المكتبة الليلية. مهما تكن هوية هذا الرجل فيجب أن أكون حذرًا. أنا محبوس معه في مكتبة مظلمة مقفرة. يجب أن أتحاشى النزاع معه. ألا أنفي أي شيء يقوله، أو أعارضه، وألا أدخل في جدال غير ضروري معه. عليّ فقط أن أتحين الفرصة التي أخرج فيها من هنا دون أي متاعب. فقدت فجأة كل اهتمامي بالكتب. قلت محاولاً إبداء ذهول يناسب عظم ما قاله:

-ما أكثرها!

-أجل. لكن لا تدع هذا العدد الضخم يخدعك. فرغم أن عدد الحيوات كبير، فإن كل واحدة منها فريدة ولا مثيل لها. قيّمة.. ولهذا فإنها تستحق أن تُسجّل. لهذا وُجدت كتب الحياة.

-إذًا لديكم أكثر من مئة مليار من هذه الكتب. إنها حقًا مكتبة ضخمة!

فكرت أن شيئًا من التملق لن يضر. ظهرت ابتسامة فخر على وجه الغريب.

-صحيح. وهي مستمرة في التوسع. تجد تحديثًا يوميًا يُسجل في كتب البشر الذين هم على قيد الحياة الآن. وعددهم أكثر من ستة مليارات!



والكتـــب الجديدة المضافة تصلنا بشـــكل مســـتمر. إن الجنس البشري يتوالد بلا حساب.

أومأت معجبًا.

-إن كنت قد أصبت في فهمك فإن كتب الحياة شبيه باليوميات.

-يمكنك أن تشـــبهها باليوميات. لكنها يوميات محايدة جدًا. وهذا هو سر تميزهـــا. لا شيء يُمحى منها، ولا شيء يخفى عليها، ولا شيء يظهر بغير حقيقته. إنها صادقة جدًا، كما يجب أن تكون. مثل الأفلام الوثائقية. سوف ترى بنفسك عندما تقرأ أحد كتب الحياة. أيها تريد؟

فكرت بالأمر ثم قلت:

-لا أعلم. ليس من السهل أن تختار من هذا العدد الكبير. أيها تقترح؟

-يميل معظـــم الناس إلى اختيار كتب حياتهـــم أولاً وهذا أمر غريب برأيي، لأن كل شـــخص قد قرأ كتابه فعلاً إن جـــاز التعبير. ومع هذا فالكثيرون يجدونه حافلاً بالمفاجآت والتجليات. فنسيان بعض الأمور أو تجاهلها هو ما يفعله معظمهم.

-أتقصد أن تقول إن ثمة كتاب عني أنا أيضًا؟

كانت دهشتي صادقة هذه المرة.

-طبعًا. لماذا تظن أنك مستثنى؟

ترددت قليلاً.

-حسنًا. سآخذ كتاب حياتي.



أجاب الرجل ذو البدلة الداكنة:

-حاضر. انتظر هنا لو سمحت. سأجلبه لك حالاً

نهض واتجه نحـــو الغرفة الخلفية، تاركًا البـــاب مفتوحًا وراءه. وقفت في دائرة الضـــوء الصغيرة التي تحيط بمنضدة أمين المكتبة. أحسســت بالدفء يتســلل إلى جسمي. لا أدري بعد ما الذي يجري، ولكن طلبي للكتاب ســيجعلني أنهي هذه الليلة بهدوء. سوف آخذ الكتاب الذي يحضره، وأشكره ثم أغادر. سوف تتيسر الأمور بعد أن أغادر المكتبة.

لم يكـــن ما أحضره لي الرجل بعد دقائق قليلـــة كتابًا، بل كان أقرب إلى الملـــف الكبير. رزمة ســـميكة من الأوراق، تبرز مـــن بين غلافين من الورق البني المقوّى. لاحظ الرجل حيرتي، فسارع إلى القول:

-إنها الطريقة الوحيدة لإضافة صفحات جديدة بعد كل تحديث. ولن يجلّد الكتاب إلا إذا لم يعد هناك ما يضاف إليه. ولحسن حظك فإن ذلك الوقت لم يحن بعد.

قالها وهو يبتسم. رددت ابتسامته بابتسامة، وأخذت الملف. كان ثقيلاً، وقد طبع على غلافه اســمي وتاريخ ميلادي بأحرف زرقاء كبيرة. أما التاريخ الآخر فــكان خاليًا. تأبطت الملـــف، وأدخلت يدي في جيب سترتي فأخرجت بطاقة المكتبة. قلت وأنا أمدها إليه:

-أتصلح هذه البطاقة في المكتبة الليلية أيضا، أم أنها تســـتلزم اشـــتراكًا منفصلاً؟



-لا حاجة للبطاقة. نحـــن لا نلتزم بالإجراءات الشـــكلية هنا. فأنت عضـــو تلقائيًا بما أن أرففنا تضم كتـــاب حياتك. ونحن لا نعير الكتب على أية حال، فلا حاجة حقيقةً للاحتفاظ بأي سجلات.

سألت محتارًا:

-لا تعيرون الكتب؟ أتقصد أنني لا أستطيع أن آخذه معي؟

-هذا مستحيل للأســف. إنها النسخة الوحيدة التي نملكها. وإن حدث شيء لها خارج المكتبة فهي خســارة لا يمكن تعويضها. كل آثارك سوف تختفي. كل ما سُــجّل فيه. ســيكون الأمر كما لو أنك لم تكن حيًا قط. لا يمكن أن نخاطر بذلك. لكنك تستطيع قراءته هنا على هذه الطاولة وأنت مرتاح. تفضل بالجلوس، وأنر المصباح. خذ من الوقت قدر ما تريد.

مـــا كان ينبغي أن أقبل الكتاب. كان يجب أن أشـــكره لعرضه الكتاب علي، وأتعلل بتأخر الوقت وإرهاقي، وأعده أن أعود في وقت آخر، ثم أغادر فورًا. لكنني لم أفعل هذا. انتصر الفضول المغرور. أي فرصة هذه التي يقرأ فيها الإنســـان كتابًا يكون هو بطله الرئيسي؟ قلت لنفسي إنني لن أحتفظ به طويلاً، ســـوف أتصفحه فقط. جلست على أقرب طاولة وأنرت مصباحها، ثم وضعت الملـــف أمامي. أخفض الرجل الغريب رأسه خلف منضدته منشغلاً بعمله.

لـــولا أنني كنت مســـتعجلاً لقرأت الكتاب من بدايتـــه، رغم أنني لن أســـتطيع الحكم على صحة المعلومات أو دقتها. من يتذكر أيامه الأولى



في هــذه الدنيا؟ قلبت الملف وفتحته مــن الخلف. أردت أن أرى مدى حداثة المعلومــات فيه. كنت أرى أن الأمر كلــه مضيعة ممتعة للوقت طبعًا، لكنني أيضًا شــعرت برعشــة توجس تضطرب في مكان ما في عقلي. شــعرت كأنني شــخص لا يصدق بالتنبؤ بالغيــب واقف أمام عراف سيكشف له مستقبله.

كانت الصفحة الأخيرة مكتوبة بخط متناهي الصغر. عنوانها الرئيسي هو تاريخ اليوم وقد اعتلى منتصف الصفحة. بدأت أقرأ من ذلك الســطر. وبينما تكمل عيناي قراءة الأسطر التالية، أدخلت يدي في جيب معطفي، وأخرجت بطاقة الســينما التــي ابتعتها اليوم. قارنــت بين رقم الصف والمقعــد المكتوب عليها، والرقمين المســجلين في كتاب الحياة. ارتفعت غصة في حلقي. اســتحضرتْ الجملة الأخيرة في ذهني ذكرى واضحة. ساعة بهو المكتبة العامة التي يشير عقرباها إلى الثامنة وثلاث دقائق.

اختلســت نظرة سريعة تجــاه الرجل الجالس بثبــات على كرسي أمين المكتبة. نظرت حولي وشــعوري بالوجل في داخلي يتعاظم. أحسست فجأة أن عيونًا خفية ترميني بنظرات ثاقبة، تخترق أسدال الظلام، تحدق بي من كل جانب. شــتّت هذا الإحســاس تركيزي. لكنني ثابرت على القراءة، رغم ما انتابني من شعور طاغٍ بأن ما سأقرأه لن يعجبني.

أخذت أقلّب صفحات ملفي بنفاد صبر، متقدمًا من آخره نحو الماضي. بحثت عن تواريخ مميزة في حياتي. تواريخ وقعت فيها أحداث لا يعرفها



أحد غيري. أو أن المفترض ألا يعرفها أحد. أو لا يحق لأحد أن يعرفها. ومع هذا فقد عرفوا. كل شيء كان مكتوبًا أمامي، كل الحقائق الجافة، كأنها لائحة تهم مقدمة إلى محكمة. كل سر أخفيته ليس عن الآخرين فقط، بل وعن نفسي في غالب الأحيان. كنت عاريًا في كتاب حياتي ولا سبيل لستري، كمجرم عتيد كُشفت جرائمه على رؤوس الأشهاد.

أغلقت الملف. تجمعت حبات العرق على جبيني، ولم يكن ذاك فقط لأنني كنت أرتدي معطفي. تسمّرت في مكاني دقائق تعلو عيني نظرة جوفاء. أطفأت المصباح، وقمت ببطء متجهًا صوب منضدة الاستقبال. وضعت كتاب حياتي المزعوم عليها. ابتسم الغريب، لكنني ظللت مقطبًا متجهمًا. قلت بصوت منخفض:

-هذه ليست مكتبة ليلية. صحيح؟ وهذا ليس كتاب حياة. هذا ملفي. وأنت من المباحث أو الاستخبارات، أو جهة أخرى سرية. فأنا لا أعرف الكثير عن هذه الأمور. هنيئًا لكم، وأجدتم في عملكم. لم أكن أعلم أن هذه المراقبة الدقيقة أمر ممكن. شيء لا يصدق أبدًا. شيء مخيف جدًا. والآن... ماذا ستفعل؟ أنت تعلم كل صغيرة وكبيرة عني. لا يمكنك أن تتهمني بأي شيء، لكن لديك من المعلومات ما يمنحك سلطة علي كي تبتزني. هذا ما تنوي فعله. ألستُ محقًا؟ إن الشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو السبب الذي دفعك إلى اختلاق تلك القصة السخيفة عن وجود مليارات كتب الحياة منذ بداية التاريخ، في حين أنك لا تحتاج إلى



أي ادعاء تختبئ خلفه؟ خاصة وأن القصة ليست مقنعة البتة.
-لا شيء مما قلته مختلق، رغم أنني لا ألومك على هذا الظن. كل شخص يقرأ كتاب حياته يصل إلى هذا الاستنتاج الذي وصلتَ إليه. وأنا أتفهم موقفك.
-لكـــن قصتك لا تخلو من ثغرات. لقد تجاهلت بعض التفاصيل، وإلا كيف عرفت أي ملف تحضر؟ فأنا لم أعرفّك بنفسي.
-نحن نعلم. كل شخص يدخل المكتبة الليلية إن عاجلاً أم آجلاً. وقد كان دورك الليلة. ونحن كنا في انتظارك.
-صحيح؟ وربما أنـــك تنتظر أحدًا يأتي بعدي؟ إن كنـــت تنتظر أحدًا فيؤســـفني أن أخبرك أن المدخل مقفل. لا أحد يستطيع الدخول. وأي مكتبة ليلية هذه التي تقفل أبوابها في الليل؟ هاه؟
تعمـــدت تبطين قولي بالتهكـــم، لكن الرجل الجالـــس خلف المنضدة أجاب بهدوء:
-أنـــت مخطئ. المكتبة مفتوحة. ســـوف ترى بنفســـك عندما تنزل إلى الطابق السفلي.
نظرنا إلى بعضنـــا بصمت لحظات طويلة، والابتســـامة باقية على وجه الغريب.
-أتقصد أن بإمكاني المغادرة؟
-طبعًـــا. ومن يمكنه منعك مـــن المغادرة؟ أبـــواب المكتبات مفتوحة للداخل والخارج دائمًا. كل المكتبات هكذا، والمكتبات الليلية ليســـت



استثناءً. لا شيء يمنعك من المغادرة، إلا إذا أردت أن تقرأ كتابًا آخر.

لم أتردد في الإجابة هذه المرة.

-لا أريد أن أقرأ أي شيء. شكرًا.

-على الرحب والسعة. سرّتنا زيارتك. تصبح على خير يا سيدي.

أخذ الملف فوقف. أومأ برأسه يودعني ثم سار متجهًا إلى الغرفة الخلفية.

-تصبح على خير.

أجبته رغم أنه قد خرج، والباب يفصل بيننا. ظللت واقفًا أمام المنضدة بضع دقائق حتى شعرت بأن الصمت يثقل حولي، وأعين الأشباح الحادة تطعنني في ظهري من بين كنف الظلام. لم يعد الرجل. استدرت ومشيت في الممر الطويل ذي السجاد الداكن، وكانت خطواتي تتسابق مسرعةً دون أن أشعر. وقفت في نهاية القاعة، والتفتّ ورائي على عجالة. رأيت أن المصباح قد انطفأ.

قبضت يداي حاجز السلم ونزلت إلى الطابق السفلي. أمسكت مقبض الباب، لكنني لم أدره. ملأتني هذه الحركة البسيطة بالخوف للمرة الثالثة في تلك الليلة. كانت المرات السابقة أسهل. لم أكن سأقع في متاعب عويصة لو لم ينفتح الباب. كل ما كان سيحدث هو أنني سأنزعج قليلاً. كنت سأمضي نهاية الأسبوع بلا كتب أقرأها، أو كنت سأتصل بالشرطة ليأتوا فيخرجونني من المكتبة.

أما الآن... فلا أجرؤ على تخيل مصيري إن كان الباب مقفلاً. سأكون



محتجزًا بلا سبيل للخروج. ولكن لا يمكن أن أستسلم للتردد إلى الأبد. استدار مقبض الباب في راحة يدي بكل بطء. سحبت الباب فانزلق بنعومة نحوي. احتضنتني عاصفة مصغرّة من كسف الثلج. خرجت بسرعة، وملأت صدري من هواء الشتاء البارد. أُغلق الباب خلفي أوتوماتيكيًا.

وقفت أمام مدخل المكتبة، يداي في جيبي وياقة معطفي مرفوعة. لم يكن ثمة سبب يدفعني إلى البقاء، لكنني لم أرغب في الرحيل. قبل أن أغادر، استدرت للمرة الأخيرة لأنظرِ إلى المدخل. لم أستطع أن أرى ما بالداخل بوضوح عبر الزجاج. فخلف الباب يرتفع جدار كثيف من قطع الظلام. وساعة المكتبة متدلية بنهاية طرفها، كأنها تطفو في الهواء، لأن القضيب الذي يوصلها بالسقف قد حجبته أطياف العتمة. نظرت نظرة عابرة إلى سطحها الأبيض المستدير بعقربيه وأرقامه.

لم يستوعب عقلي الأمر الغريب في البداية. ولم ينبهني عقلي إلى تلك الغرابة إلا بعد أن ابتعدت عن المكتبة بضع خطوات. تجمدت قدماي في مكانهما، ثم ركضت عائدًا إلى المدخل. ألصقت وجهي بالزجاج، وظللت بيدي عيني. سرت القشعريرة في جسدي. تراجعت عن الباب، ونزعت نظارتي، ورفعت معصمي الأيسر. كان ظني بأنني سأرى شيئًا مختلفًا واهيًا متزعزعًا. لكن ماذا بقي لي لأتمسك به؟ تبخر ذاك الإحساس فورًا كعادتها الآمال العجفاء. كلتا الساعتين، ساعة المكتبة وساعة يدي، تشيران إلى الوقت نفسه: الثامنة وثلاث دقائق.

هززت رأسي مكذبًا عيني. مستحيل. لقد قضيت ساعة على الأقل داخل المكتبة. بل قد تكون ساعة ونصف، من هذا أنا واثق. كل لحظة ما زالت عالقة بتفاصيلها في ذهني. لا يمكن أن يكون ما مررت به في داخل المكتبة خيالاً من عقلي، أو توهمًا. لكن تيار الوقت لا يقف أبدًا. ومهما بلغت قوة الاستخبارات فلا يمكنهم التحكم في الوقت! إذًا ما الذي جرى؟ لابد أن هناك تفسيرًا.

لا توجد سوى طريقة واحدة لإيجاد الإجابة. يجب أن أدخل إلى المكتبة مرةً ثانية. لم تعجبني الفكرة على الإطلاق، لكن العيش في ظل لغز يلفظه المنطق لبقية أيام عمري سيكون أصعب بكثير. ارتعش جسدي عندما امتدت يدي لتلمس مقبض الباب. دفعت الباب، لكنه لم يتحرك. حاولت مرة أخرى، بقوة هذه المرة، لكنه لم يتزحزح. المكتبة مقفلة كما يجب أن تكون. المكتبات لا تفتح أبوابها في الليل! لا يوجد شيء اسمه مكتبة ليلية. انتهت ساعات العمل، وغادر الموظفون إلى بيوتهم. تأخرت في الحضور.

أسقط في يدي ولم أجد بدًا من الاستسلام إلى ما حكم به الموقف، خاصةً أنني لا أعلم ماذا أفعل. لا أستطيع اقتحام المكتبة طبعًا. وحتى لو أردت كيف سأقتحم المكان؟ أنا لست لصًا، وليس لدي موهبة اللصوص. أخرست الأصوات التي تعارض تراجعي. ما كان بوسعي أن أفعل؟ وما فائدة الوقوف في تلك العتمة والثلج؟ لن ينالني إلا الإصابة بالزكام



دون داعٍ، أو قد يشتبه بي شرطي في نوبة حراسته. دسست يدي في جيبي وأحنيت كتفيّ، وسرت في الطريق مخترقًا ندف الثلج السميكة.

لم أبتعد كثيرًا هذه المرة أيضًا. توقفت فجأة بجانب أقرب مصباح من مصابيح الشارع، رغم أنني لم أعرف ما السبب. انتابني إحساس غامض بأنني نسيت شيئًا... أنني أغفلت تفصيلاً. نبشت في تلافيف دماغي، لكن لم أستطع اصطياده، كالكلمة التي تتأرجح على طرف لسانك لكنك لا تتذكرها. رفعت بصري إلى السماء. كانت ندف ثلج لا عدّ لها تتراقص حول دائرة الوهج البرتقالية الواسعة التي تطوّق مصباح الشارع، ثم تنساب ببطء إلى الأسفل محمولة فوق هبات الرياح. ما إن لامست وجهي حتى أمسكت ما تاه عني.

استدرت وركضت نحو مدخل المكتبة وأنا أكاد أنزلق على الجليد. لم أعد في حاجة إلى أن أظلل عيني من نور المصباح. لم أعد في حاجة إلى أن أنظر إلى الداخل، لأنني كنت أعلم ماذا سأرى قبل حتى أن أرى، رغم الظلام الذي يخيم داخل المكتبة. رأيت مقبض مظلتي يبرز من حامل المظلات النحاسية.




مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة الجحيم

توقف الحارس الذي يرافقني أمام بـاب في ردهة، فطرقه. انتظر بضع دقائق ثم بدا كأنما بلغه إذن بالدخول، رغم أن أذنيّ لم تسمعا شيئًا. فتح البـاب ودفعني إلى الأمام دون أي كلمة. دخل بعدي إلى الحجرة محكمًا قبضته على كتفي ليوقفني، ريثما يغلـق الباب خلفه. لم يكن ثمة حاجة إلى الشـدة في قبضته، لأنني لم أكن أعلم أين يمكـن أن أذهب أو ماذا أفعل. ولكنه على الأرجح لا يفهم غير القسوة والصرامة. وقفنا أنا وهو بجانب الباب، ننتظر أوامر جديدة على ما يبدو.

كان السـقف عاليًا عاليًا، ككل شيء آخر رأيته هنا. وكان تأثير الارتفاع أشـد في هذه الحجرة، لأن المسافة بين الأرض والسقف أطول بكثير من طول الحجـرة وعرضها. أصابني فجأة الدوار وأنـا أتصور أن الحجرة ستكون طبيعية لو أن السقف وأحد الجدران تبادلا مكانيهما. لكنني طبعًا لا أتوقع أن هذا المكان سيخضع لقوانين الطبيعة. ولى ذاك الزمان وراح. من يدري أي خوارق سأشاهدها هنا؟ يجب أن أحضر نفسي للأسوأ.

كانت الحجرة ضعيفة الإضاءة، قليلة الأثاث. من سقفها يتدلى مصباح واحد بسـلكٍ طويل، وتغطيه مظلّة معدنية دائرية، تجعله يطرح معظم نوره على كرسي خشـبي، يقف وحيدًا في منتصف الحجرة. كان هناك رجـل لم يظهر منه إلا ما فوق الكتفين، يجلـس إلى مكتب مقابل الباب



موليًا الجدار ظهره. بدا مركزًا على ما تعرضه شاشة الحاسوب أمامه. رأيت من وهج الشاشة التي لم تخلّف أي ظل وجهَه الطويل شاحبًا كما الأشباح. اختلط الشيب بلحيته الكثّة القصيرة، وكان يرتدي نظارة قراءة ذات عدستين نصف مستديرتين. لم أستطع تحديد سنه. قد يكون ما بين بداية الأربعين حتى نهاية الخمسين.

لم يبدُ أنه لاحظ وجودنا. وقفنا أنا والحارس بصبر، ساكنين كتمثالين. وأخيرًا، ودون أن يبعد الرجل عينيه عن الشاشة، رفع يده اليسرى وأشار إشارةً سريعة لم يفهمها إلا الحارس. أمسك الحارس كتفي بعنف مرة أخرى، ودفعني تجاه الكرسي الذي يتسلط عليه النور. ولم يفلتني إلا بعد أن جلست، ووقف خلفي مباشرة.

أخذت نظراتي تهيم في المكان وأنا أنتظر. زاد لون الحجرة الموحد إحساسي بالاختناق الذي أثاره علو سقفها. درجة سقيمة من درجات الرمادي المخضرّ غطت كل شيء: الجدران، والسقف، والأرضية، والكرسي، والمكتب. حتى الحاسوب كان بذلك اللون. وطلاء الجدران متصدع متقشر في مواضع متفرقة، كاشفًا رقعًا من الجبس الجاف بلون السماء العاصفة. شعرت كأننا بداخل علبة حذاء مقلوبة، كانت في يوم ما خضراء، فبهت لونها وبلي قوامها.

لو أن في الحجرة نافذة لبدت أقل كآبة، حتى وإن كانت ذات قضبان. لكن لم يكن هناك نوافذ. إن العمل في مكان كهذا لا يمكن إلا أن يعد عقابًا. نظرت إلى الرجل الجالس خلف الحاسوب بمزيج من الشفقة والتوجس.



حتى لو لم أتطير من منذرات الشؤم التي رأيتها هنا، فلا يمكن أن أتوقع خيرًا يأتي من شخص مجبر على العمل في هذا المكان لأي فترة مهما قصرت.
قطع صوت نقرات أصابع الرجل على لوحة مفاتيح لا يمكنني رؤيتها سكون الحجرة العميق على حين غرة. لم يطل نقره السريع، وعندما انتهى رفع رأسه وخلع نظارته، ثم وضعها بجانبه على المكتب. أغلق عينيه بشدة، وقرص قصبة أنفه بسبابته وإبهامه. ظل على تلك الوضعية لحظات طويلة، ثم فتح عينيه وأومأ برأسه إلى الحارس. ابتعد الحارس بخطوات سريعة. فتح الباب المعدني فأصدر صريرًا، ثم خرج فأغلقه وراءه.
بقينا ننظر إلى بعضنا البعض دون كلام برهة طويلة. شعرت بالضيق من نظراته الفاحصة الصامتة التي تعبر عن المقت والغضب، أكثر من القسوة أو التوعد. أدركت بسرعة أنه لم يكن يتطلع إلى الحديث معي. كانت تصرفاته توحي بأنه قضى في وظيفته هذه زمنًا طويلاً حتى إنها خدّرت حواسه. لقد رأيت التعبير ذاته على وجوه بعض المحققين والقضاة المسنين. أطلق الرجل أخيرًا زفرة من صدره، ومسّد جبينه العالي بأصابعه. ثم كسر حاجز الصمت.
-أنت تعلم أين أنت، أليس كذلك؟
كان صوته عميقًا وكلماته ممطوطة. ترددت لحظة، ثم أجبت:
-في الجحيم.
-هذا صحيح. رغم أننا لا نستعمل هذا الاسم الآن. هل تعلم لماذا



جئت إلى هذا المكان؟

لم أجـب فورًا. كان من الواضح أن لا جدوى من التسـتر أو الإنكار، لكنني لن أجرّم نفسي أيضًا.

-امم... يمكنني أن أخمن السبب...

رفع صوته وهو ينقر الشاشة بمفصل الوسطى:

-تخمن السبب؟ لا نرى ملفًا مثل ملفك هنا إلا نادرًا.

-ربما يمكنني أن أشرح لك...

-إياك! أعفني من الأكاذيب لو سمحت. يا لوقاحتكم! أنت وكل من يجلس في مكانك. لا يكفي أن أعرف الأشـياء المقززة التي اقترفتموها، بل تريدونني أيضًا أن أسـتمع إلى تبريراتكم الزائفـة القذرة. إنها تثير اشمئزازي أكثر من جرائمكم نفسها. لا يوجد ما تشرحه على أية حال. كل شيء واضح كقرص الشـمس. نحن نعـرف كل شيء عنك. كل التفاصيل. وهل كنت ستجلس مكانك هذا لو لم نكن نعلم؟

قلت بهدوء:

-لا مناص من وقوع بعض الأخطاء.

-لا توجد أخطاء. وحتى لو كانت هناك أخطاء، فقد فات أوان تصحيحها. لا سبيل للخروج من هنا. متى ما دخلت إلى هنا فستبقى إلى الأبد.

كنت أعرف هذا طبعًا. كل شخص يعرف ذلك. لكن أيلومني أحد إن حاولت النفاذ بجلدي؟



سألت بأكثر النبرات خنوعًا:

-وماذا عن التوبة؟ ألها أي قيمة؟

لم يضطر هذه المرة إلى الرد على سؤالي. أجابتني ملامح وجهه، وأخبرتني بوضوح عن رأيه بندمي.

-لا تتعب نفسك. لا وقت لدي لهذا الهراء. أنا غارق في العمل. لم أرَ العالم على حاله هذه من قبل. أتتخيل ثقل الحمل على كاهلي؟

يمكنني أن أتخيل. لكن بما أن السؤال كان مجازيًا فلم أجد إلا أن أرفع كتفي. ظننت للحظة أن الرجل يريد أن يشكو لي متاعبه، لكنه غيّر رأيه.

-انس الأمر. لا يهم. فلندخل في صلب الموضوع. يجب أن نعرف أكثر شيء يناسبك.

سألتُ بحذر:

-يناسبني كعقاب؟

-نحن نسميه علاج.

-الاحتراق في النار علاج؟

-ومن تحدث عن الاحتراق في النار؟

-إذًا ستغلونني في الزيت، أو تجرونني ثم تقطّعونني إلى أربعة...

-ما هذا الخيال المبتذل؟! أتظن أننا نعيش في العصور الوسطى؟

-آسف. لم أكن أعلم...

-كم يذهلني أعداد الذين يأتون إلى هنا وفي أذهانهم أفكار مغلوطة!



أتظن أننا نعيش خارج الزمان؟ أن لا شيء يتغير هنا؟ أترى أن هذا (وطرق جانب الشاشة) يتماشى مع تلك الوحشية والهمجية؟

أجبت بسرعة:

-لا طبعًا.

-لكل زمنٍ جحيمه. وجحيم اليوم هو المكتبة.

رفت عيناي بحيرة.

-مكتبة؟

-أجل. المكتبة.. المكان الذي يقرأ فيه الناس كتبًا. ألم تسمع عن المكتبات من قبل؟ لماذا يندهش الجميع عندما يعرفون ذلك؟

-لأنه أمر... غير متوقع.

- صحيح، إذا لم تمعن التفكير بالأمر. لكن عندما تدرس الموضوع، سترى أن لا عجب فيه إطلاقًا.

-لم يكن ليخطر الأمر في ذهني.

-في الحقيقة، لقد تفاجأنا نحن أيضًا بالفكرة في البداية. لكن ما أفادنا به الحاسوب لا لبس ولا جدال فيه. إنه حقًا آلة مفيدة.

توقف عن الكلام. مرت لحظات قبل أن أفهم أنه يريد أن أوافقه الرأي.

-كلامك صحيح. مفيدة جدًا.

-خاصة في البحث الإحصائي. فعندما أدخلنا بيانات كل شخص هنا، ظهر أن الصفة المشتركة بين أكبر عدد من نزلائنا، 84.12 بالمائة تحديدًا،



هي كرههم للقـــراءة. وكان هذا منطقيًا في 26.38 بالمائة من الحالات، لأنهم أميون. لكن ماذا عن الـ 47.71 بالمائة الذين يستطيعون القراءة، لكنهم لم يمسكوا كتابًا واحدًا في حياتهم، وكأن الكتب تنقل الطاعون؟ أما العشرة بالمائة المتبقية فهم يقرأون من حين لآخر، لكنهم لم يجنوا غير إضاعة أوقاتهم لأنهم لم يستفيدوا أبدًا.

هززت رأسي.

-أمر بالغ الغرابة.

نظر إليّ شزرًا.

-لماذا تتعجب؟ فكر بنفسك. كم كتابًا قرأت؟

فكرت قليلاً أحاول أن أتذكر.

-امم... في الواقع... ليس الكثير.

-ليس الكثير؟ سأخبرك كم بالضبط. (سمعت نقرات أصابعه على أزرار لوحة المفاتيح مرة ثانية) خلال السنوات الثمانية والعشرين الماضية من حياتك، بدأت في قراءة كتابين. وصلت في الأول إلى منتصف الصفحة الرابعة، أما الثاني فلم تتعدَّ الفقرة الافتتاحية.

أجبت نادمًا:

-لم يجذب اهتمامي.

-صحيح؟ والأشياء الأخرى التي فعلتها هي التي جذبت اهتمامك؟

-لم أكن أعلم أن ترك القراءة من أكبر الآثام.



-إنها ليســت إثمًا. رغم أن العالم سيكون مكانًا أفضل لو كان هجر القراءة إثمًا. لم يُرســل أحد إلى الجحيم من قبل لأنه هجــر القراءة. ولهذا لم نعرف أن هذه الصفة مفقودة، إلا بعد أن أحضرنا الحاســوب. لكن بعد أن نبّهنا الحاســوب إلى هذه العلاقة المفقودة اســتطعنا استغلالها بشكل جيد. وفي طرق شتى. بل يمكنك أن تقول إن هذا أدى إلى تغيير كامل لمفهوم الجحيم.

-لا أحد يعلم هذا.

-طبعًا لا أحد يعلم. وكيف يعلمون؟ من هنا تنبع كل الأفكار المغلوطة. لم يكــن الجحيم قط بالصورة التي يتخيلها معظم الناس. إنهم يتخيلون أنها حجرة تعذيب أبدية، يديرها ســاديّون عديمو الرحمة. قل لي، أتشم رائحة الكبريت التي لا ينفك الناس يتحدثون عنها؟

شــممت الهواء من حولي. كان جافًا ثقيلاً، تتعلق به رائحة عفونة. كان الرجل صادقًا.

-لا أشم شيئًا.

-كان الجحيم مجرد ســجن. صحيح أن فيه بعــض المميزات الخاصة، لكن النظام هنا لم يكن يختلف كثيرًا عما هو مطبق في سجونكم. كنا نعامل نزلاءنا هنا بالمعاملة نفسها التي يتلقّاها نزلاءكم. ولماذا نختلف عنكم؟ فإن كان ثمة وحشــية وعنف هنا، فما ذلك إلا لأننا نحتذي مَثلكم. ومع تحسن الأحوال في ســجونكم مع مرور الوقت، أصبحت الأوضاع هنا أكثر احتمالاً. بل إن الأمور تحسنت، إلى درجة أننا خشينا أننا نناقض المنطق بتسمية المكان جحيمًا.



-ماذا تعني؟

-لقد أصبحت سجونكم مؤخرًا تشبه مراكز الاستجمام، بل هي أقرب ما يكون إلى الفنــادق الرخيصة. وأنت خير حكم عليها. ألم تقضِ وقتًا طويلاً في السجون؟ أكانت غير مريحة؟

فكرت في السؤال لحظة، ثم أجبت:

-كلا.. أنت محق. رغم أن الأكل لم يكن جيدًا في كل السجون... خاصة الحلوى.

هربت تنهيدة عابرة من فم الرجل الجالس خلف الشاشة.

-أترى؟ لا نستطيع طبعًا أن نســمح ببعض تلك الامتيازات هنا. مثل إجازات نهاية الأســبوع، أو اســتخدام الهواتف المتنقلة. كيف ستكون سمعتنا لو سمحنا؟

-لكن هذا سوف يسّهل فترة المحكومية...

-ربما. لكن يجب ألا ننسى أبدًا أن هذا هو الجحيم. لذا وجدنا أنفسنا في مأزق. لم يعد بإمكاننا اتباع الأوضاع المخففة التي تطبقونها في سجونكم. فقــد كنا مهددين بفقد الصفة الوحيدة التي أُتهمنا بها منذ فجر التاريخ: أن الجحيم هو تجســيد للوحشــية، وســلب حقوق الإنسان، وسحق بشريته. ومن حسن الحظ أننا اكتشفنا عندها ترك الناس للقراءة.

-عفوًا، ولكنني لا أرى أي علاقة.

-الأمر بسيط. لقد جعلنا القراءة إجبارية على الجميع، مما أتاح لنا الجمع



بين المفيد والجميل. فالغاية هي أن يتخلص نزلاؤنا من العيب الرئيسي الذي رماهم هنا. فلو أنهم قـــرأوا أكثر لما كان لديهم الوقت ولا الدافع ليرتكبوا ما ارتكبوه. فالقراءة وسيلة علاجية فعالة لهؤلاء. نعم.. ولهذا نحن نعتبرها علاجًا لا عقابًا، حتى وإن فات أوان العلاج. لكن الحقيقة هي أن الأوان لا يفوت أبدًا لتقديم العلاج المناسب. وماذا نسمي المكان الذي يجب أن يقرأ فيه الناس؟

-مكتبة؟

رفع الرجل يديه في الهواء عاليًا.

-أحسنت. والمكتبة هي آخر مكان يمكن أن تسّلط عليه التهم بانتهاك حقوق الإنســـان. وفي الوقت نفســـه، فقد أزالت هذه الخطوة وصمة العار التي التصقت بنا. إضافةً إلى هذا فقد اكتشــفنا أن إنسانيتنا تفوق إنسانيتكم بأشـــواط، إذا ما قارنا بين معاملتنا ومعاملتكم في السجون. صحيـــح أن لديكـــم مكتبات في الســـجن، لكن ما الفائـــدة ولا أحد يســـتعملها إلا فيما ندر؟ إن وجودها مثل عدمه. ولنأخذك مثالاً للمرة الثانية. أدخلت مكتبة أي سجن من السجون العديدة التي عشت فيها؟

أجبت صادقًا:

-لم أكن حتى أعلم أن هناك مكتبات في السجون.

-أتصدقني الآن؟ لكن لا تقلق، سوف تسنح لك الفرصة لتعويض ما فاتك. بل سوف تعوض ما فاتك أضعافًا مضاعفة. فإن أمامك أبدية لا



نهاية لها تقضيها في القراءة.

حدقت في الرجل لحظات طويلة دون حديث. قلت بعد حين:

-أهذا هو عقابي؟ أن أقرأ؟

-علاجك.

-علاجي.. نعم. ولا شيء غير القراءة؟

حاولت أن أكتم نبرة الارتياح في صوتي، لكنني لم أنجح.

-لا شيء غير القراءة. سوف تجلس في زنزانتك وتقرأ. هذا كل ما ستفعله. لن يكون لديك أي التزامات أخرى. لكن يتعين عليّ أن أنبهك أن الأبدية زمن طويل جدًا. وقد تسأم القراءة بعد حين. هذا ما يحدث لكثير من نزلائنا، فيحاولون عندها أن يتذاكوا. كم من حيلةٍ حاولوا خداعنا بها! يوهموننا أنهم يقرؤون رغم أنهم لا يفعلون. لكن لدينا طرق نكشف بها مكرهم. وفي تلك الحالات فنحن نضطر آسفين إلى استعمال وسائل عنيفة لإجبارهم على العودة إلى القراءة. وهي وسائل موجعة لمن يتشبث بعناده ويقاوم.

-وماذا عن الإنسانية؟ وحقوق الإنسان؟

-نحن لا نمسّ شعرة منهم. كلّ ما نفعله هو لمصلحتهم في النهاية. لا يصح أن ندعهم يؤذون أنفسهم بسبب قلة إيمانهم بجدوى العلاج.

قلت بغير اقتناع:

-أجل.. لا يصح.



-هذه هي النقاط الأساسية التي يجب أن تعرفها. سوف تألف أحوال هذا المكان. ستواجه صعوبة في البداية إلى أن تعتاد على الأوضاع، لكنك ستكتشف بنفسك أن القراءة تمنحك رضا لا يعادله رضا. هذه هي الحقيقة التي يتعلمها الجميع أثناء قضائهم محكوميتهم الأبدية، وبعضهم يتوصلون إلى هذه الحقيقة بسرعة، والبعض الآخر يستغرقون قليلاً من الوقت. وآمل أن يكون سلوكك ناضجًا محترمًا، وألا تضطرنا إلى اللجوء إلى القوة. سوف تسهل حياتك وحياتنا.

أومأت برأسي لأظهر له موافقتي التامة. ولأول مرة ارتفعت زاويتا فم الرجل إلى الأعلى قليلاً، كاشفةً عن شبح ابتسامة.

-ممتاز. والآن فلنرَ أي علاج يناسبك. ما نوع الكتب التي تود أن تقرأها؟

كان سؤالاً صعبًا فتريثت قبل الإجابة. قلت بنبرة غير واثقة:

-القصص البوليسية... ربما.

زوى الرجل ما بين حاجبيه، وأجاب:

-طبعًا لا! سنكون كمن يداوي مريضًا بالسم! لا لا أنت تحتاج إلى عكس ذلك تمامًا. شيء لطيف ومريح يثري عقلك، مثل الأدب الرعوي. أجل... هذا هو الخيار الأنسب لمداواة روحك. قصائد عن الحياة الريفية. نحن نصف هذا الدواء غالبًا لنزلائنا. وإن لها تأثيرًا استشفائيًا عجيبًا.

أظنه رأى على وجهي تعبيرًا لا يُفسر إلا بأنه تقزز، لأنه عندما تحدث



بعد ذلك كان صوته مدببًا كالسكاكين، كما كان في بداية الحديث.

-إن كنت تظن أن هذا ظلم، فواسِ نفسك بأن تذكرها أنني مستعد لفعل المستحيل كي أكون مكانك... أن أستمتع بالقصائد الريفية، ولو لفترة قصيرة. لكنني لا أستطيع مع الأسف. لن يسمحوا لي. وأنا مجبر على ألا أقرأ إلا الفظائع والفواحش التي تتدفق من هنا (وضرب الشاشة ثانية، لكن هذه المرة من فوق) مثل المياه التي تنفجر من سد متصدع. والأبدية ليست أقصر ولا أخف عليّ مما هي عليك. إنه ظلم. فمتى ما وصلتَ حد الانهيار، تذكر كم أنني أحسدك، وعندها سينشرح صدرك.

توقف عن الكلام. بدا لي فجأة أن ارتفاع الحجرة الشاهق المتنافر ولونها المقزز قد التحما به، فأصبح وجهه قناعًا من الحقد اليائس. نظر إليّ مطولاً وعيناه لا تكشفان أي شيء. مد يده نحو نظارته فارتداها بعد أن أدار وجهه صوب الباب خلفي. لم ينبس بأي كلمة، ومع هذا فقد سمعت صرير الباب معلنًا دخول أحد. وجدتْ يد الحارس القاسية كتفي. نهضتُ عن الكرسي واتجهت إلى خارج الحجرة. حانت مني التفاتة تجاه الرجل الجالس خلف المكتب وأنا أخرج. كان قد استغرق تمامًا في قراءة ملف جديد، منهمكًا بالنظر إلى شاشته. أُغلق الباب بيننا فحجبه عن عيني، وبدأت أسير عبر الردهة مع الحارس نحو زنزانتي حيث تنتظرني القراءة الأبدية كما تنتظره.




مكتبة
الفكر
الجديد

أصغر مكتبة

لم أدرك أن معـــي كتابًـــا زائدًا إلا بعد أن وصلـــت إلى المنزل. كان يجب أن يكون هناك ثلاثة كتب في الكيس البلاستيكي، لكنني أخرجت منه أربعـــة. كان الرجل العجوز قد وضع الكتـــب في كيس قديم متغضن، ملطخ ببقعة ســـوداء من الخـــارج. لم أعلّق على الكيـــس، لأنني لم أود أن أجرح مشـــاعره. فكيف أقول لـــه إنني لا أهتـــم إن ابتلّت الكتب التي أعطاني إياها بمياه المطر؟ كان الأمر ســـيكون مختلفًا طبعًا لو أنني أحضرت معي مظلة؛ لكن السماء لم تنذر بالأمطار عندما غادرت منزلي.

كان العجوز يشبه كيسه شبهًا كبيرًا. فهو في أرذل عمره، ذو وجه متغضن بالتجاعيد، ولحية رمادية يتخللها الشعر الأسود كأنه بقايا طعام متعلقة بها. ولم تختلف ملابسه عن وجهه. فكان معطفه الطويل المهلهل المتسخ الذي يكاد يكنس الأرض مرقّعًا هنا وهناك، وكانت أزراره كلها مغلقة حتى عنقه، رغم أن الطقس لا يســـتدعي هذا. فقد كنا في بداية الربيع، والجو دافئ على غير العادة تتخلله زخّات مطر مباغتة. ولو أنني قابلت هذا الرجل في أي مكان آخر لظننت أنه متسول.

لكن منظر الرجل العجوز المنفّر لم يكن غريبًا بين باعة الكتب المستعملة الذين يعرضون بضائعهم في كل يوم سبت في ذات المكان طوال العام،



حتى في أشهر الشـتاء القارسـة، تحت الجسر العظيم. كانوا يحضرون طاولات قابلة للطيّ، أو سـلال بلاسـتيكية كتلك الخاصة بنقل المياه المعدنية، أو صناديق كرتونية كبيرة يغطونها بأوراق الجرائد، فيصنعون منصات عرض مؤقتة. ولولا وجـود الكتب على هذه المنصات، لكان المكان أشبه بسوق السلع المستعملة.

لكن المظاهر خدّاعة. فهؤلاء ليسـوا مجرد باعة متجولين لا يعرفون عن بضاعتهم إلا بعض المعلومات اليسيرة. يرى الشخص مظهرهم أشعث شبيهًا بالمشرّدين ويرى المكان الذي يعرضون بضاعتهم فيه فيحتقرهم، لكنه إن تبادل بضع كلمات معهم سيكتشف بسرعة أنهم خبراء ضليعون بعالم الكتب. فعندما تبدي اهتمامًا بأحد الكتب المعروضة، ينبري البائع بتقديم كنز مـن المعلومات عن المؤلف، والنـاشر، والنقد الذي تلقاه الكتـاب، وآراء القراء بـه، والطبعات السـابقة أو اللاحقة له. بل قد تسمع أحيانًا تاريخًا مفصّلاً عن نسـخة محددة، تكون أكثر متعة وإثارة من بقية النسخ.

وكانت هذه المعلومات صحيحة دقيقـة، كما لو أنك قد اطّلعت عليها في موسـوعة أدبية. ولا شيء لدى هؤلاء الباعة يُخفـى أو يُدبّج ليبدو أكثر إثارة من حقيقته، كما هو متوقع من أولئك الذين لا يهمهم سـوى الترويج لبضائعهم. بل إنك أحيانًا تشعر بأنهم يقصدون بما يحكونه لك إثناءك عن شراء الكتاب.



منذ أكثر من عام وأنا أتجول كل يوم سبت تحت الجسر العظيم، من أجل هذه الحوارات مع باعة الكتب. وأشتري في النهاية كتابًا أو كتابين، لا لأنني أود أن أقتني هذه الكتب ولكن لأنني أريد مكافأة هؤلاء الأشخاص الذين تلهب كلماتهم مخيلتي، فتدفعني إلى الكتابة والتأليف. ومع مرور الوقت، عقدت صداقات مع بعض باعة الكتب الذين اعتدت على رؤيتهم هناك، وبذلك استمتعت باهتمامهم الخاص بي بصفتي زبونًا منتظمًا. فمتى أتيت أكشاكهم يسارعون إلى سحب كتب من تحت الطاولة كانوا قد احتفظوا بها لأجلي. ولم يكونوا يسمحون لأحد بقطع الحديث بيننا، حتى لو كلّفهم هذا زبونًا آخر قد يكون مستعدًا لدفع المزيد من المال. وقد كدت أقترح أكثر من مرة أن نكمل مناقشاتنا في مكان آخر، لكنني أحجم دائمًا. فلسبب ما، كنت أشعر أن الحديث سيفقد طعمه، فكانوا بالنسبة لي كأنهم لا يعيشون في مكان آخر غير هذا السوق.

لم أكن قد قابلت ذاك العجوز من قبل. كان قد أقام كشكه في طرف الجسر لأن جميع الأماكن الأخرى تحت الجسر كانت مشغولة، فأصبح كأنه منبوذ من بقية الباعة. وما أن تتساقط أولى قطرات المطر، فإنه سيسارع حتمًا في الاحتماء تحت مكان مظلل. ولن يكون هذا في الحقيقة صعبًا عليه، لأنه كان الوحيد الذي يملك عربة متحركة. كانت عربته في يوم ما، منذ دهر سحيق، عربة لبيع المثلّجات، وهي عبارة عن عربة



ذات صندوق خشــبي، بعجلتين كبيرتين وذراعين طويلتين لدفعها. لم أرَ مثلهــا منذ كنت طفلاً. وقد بات طلاؤهــا الزاهي الذي كان يزينها في شــبابها باهتًا متقشرًا، ورغم ذلك فقد كان باستطاعتي أن أميّز فيها صورة المثلجات مرسومة في مقدمة العربة.

كان الباعة الآخــرون يتركونني أتصفح كتبهم المعروضة دون أن يبدوا تعليقاتهم. ولم يكونوا يبادرون بالحديث معي، إلا إذا ســألت أحدهم ســؤالاً أو اخترت كتابًا. وهذا كان العرف السائد المتفق عليه. فإما أن الرجل العجوز لم يكن يعرف هذه العادة، أو أنه لم يهتم باتباعها. بادرني بالحديث فور اقترابي من عربتــه. قال بصوت أجش؛ صوت من اعتاد التدخين بلا انقطاع:

-لديّ ما تبحث عنه.

-وكيف تعرف أنني أبحث عن أي شيء أصلاً؟

كانت لهجتي خشــنة قليلاً، وكانت عيناي تجولان بين الكتب القديمة التــي غطّت عربتــه. كان قد اســتبدل الغطاءين المعدنيــين مخروطيّ الشــكل اللذين كانا يُســتعملان لحفظ المثلجات بلوحين من الخشب غير المصقول. وعلى اللوحين تكدســت كتب قديمة دون ترتيب، كأنما ألقيت من حقيبة بلا عناية.

-ليس من الصعب التكهن بذلك. فهو مكتوب على وجهك.

-مكتوب على وجهي؟!



سألت محتارًا وأنا أتفحص العجوز. وقد أدركت في تلك اللحظة ما لم أدركه عندما نظرت إلى وجهه أول مرة. كان رأسه ملتفتًا ناحيتي، لكن عينيه كانتا تحدقان في مكان آخر بلا تركيز. كان الرجل كفيفًا. قال:

-نعم. إن كنت تعرف كيف تنظر.

-أجل.

أجبته وأنا أومئ برأسي. وزاد من ارتباكي تنبهي إلى أن تحريك رأسي لن يعني لهذا الرجل شيئًا.

هجمت نوبة سعال غليظة على العجوز بغتة، كأن سعاله صدى هزيم رعد آتٍ من مسافة بعيدة، أو كأنه يصدر من أعماق رئتيه. غطى فمه بيده العجفاء، وأمسك بالأخرى صدره وأحنى رأسه. بقي على ذلك الوضع لفترة ليست قصيرة.

قال هامسًا بعد أن استردّ أنفاسه:

-أنت كاتب. أليس كذلك؟

سألت بهمسة تماثل همسته:

-أويظهر هذا على وجهي أيضًا؟

لم يجب فورًا لأن أنفاسه المتحشرجة منعته.

-لا لكن ثمة رائحة تنبعث منك. للكتّاب رائحة خاصة بهم. وكلما تعسرت كتاباتهم فاحت الرائحة، وازدادت قوةً. ألم تكن تعلم هذا؟

تشممت الهواء من حولي دون قصد مني. ما شممته كانت رائحة النهر؛



رطوبة محملة بآثار مجروفات متعفنة جلبها فيضان الربيع. اعترفت له بجهلي:

-لا لم أكن أعرف.

-لا عليك. ما يهم هو أن هناك علاجًا لحالتك. وسوف نجده فورًا.

بدأ يتفحص كومة الكتب بأصابعه. كان يأخذ الكتاب فيتحسسه برفق، ثم يعيده إلى الكومة، أو يضعه جانبًا كأنه يرى بيديه. وعندما فرغ من الاختيار أعطاني ثلاثة كتب.

-خذ. هذا ما تحتاجه. سوف تساعدك.

ترددت قليلاً، ثم قبلت منه ما ناولني. كانت الكتب بالية. لم يكن للأول أي غلاف، وكانت زوايا صفحاته الأمامية والخلفية مطوية من كثرة الاستعمال. والثاني قد دُمّر تمامًا بخربشات قلم لا يرحم. أما الثالث فقد اهترأ كعبه حتى تمزق. وقد تجمّع الغبار على الكتب الثلاثة جميعها. لم أجد سببًا لشرائها، خاصةً وأنني أملك نسخًا من الكتب نفسها أفضل بكثير من هذه الطبعات.

قررت أن أشتريها رغم عيوبها. لن أستفيد منها شيئًا، لكن كيف أردّ شيخًا أعمى؟ لكن لم يكن دافعي للشراء هو الشفقة فحسب، فبراعته في البيع تستحق أن تُكافأ. وادعاؤه أن للكتّاب رائحة تميزهم كان ترويجًا مبتكرًا لبضاعته، رغم أنني أعرف أنه لم يشم أي شيء طبعًا. قد أكتب عن هذه الحادثة في كتابي يومًا ما.

بينما كنت مسرعًا نحو المنزل، أدركت أنه لا توجد إلا طريقة واحدة



عرف بها الرجل مهنتي. فقـد كنت أتحدث مع أحد الباعة الذين أتردد كثيرًا على محالّهم، وكان كشكه يبعد عن عربة العجوز بضعة أمتار. سألني البائع عن كتابي الجديد، ورددت عليه ردًا مقتضبًا. ولمّا شـعر البائع أن لا رغبـة لي في الكلام عن كتابي، أدار دفة الحديث نحو موضوع آخر لم نكن قريبين جدًا من العجوز الكفيف، وكنا محاطَين بحشد مزعج، فعلى الأرجح أنه لم يستطع سماعنا. لكن من فقد بصره يُعوّض بسمع حاد.

سألته وأنا أخرج محفظة نقودي:

-كم تطلب؟

سعل الشيخ ثانيةً، وهذه المرة طال سعاله الجاف. قال:

-أطلب منك الكثير. لكنّ ليس مقابل الكتب، فهي مجانية.

نظرت إلى عينيه الخاويتين محتارًا، وسألته:

-لماذا تعطيني إياها بلا مقابل؟

-لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تحصل بها على هذه الكتب. أنا لا أبيع الكتب.

توقعت منـه المزيد، لكن من الواضح أنه ظـنّ أن إجابته كانت كافية.

قلت بعد تفكير:

-أنت تحرجني. لا أعرف كيف أكافئك.

-لا عليك. ناولني الكتب لأضعها في كيس تحمله. سـتمطر بعد قليل وقد تبتل، ينبغي حفظ هذه الكتب من البلل.



رفعت بصري إلى رقعة السماء التي لا يحجبها الجسر. كانت السحب قد بدأت تتجمّع، لكن ما زالت السماء صافية نسبيًا ولا تنذر بالمطر. لم أقل شيئًا لأن الرجل العجوز كان واثقًا من كلامه. ربما يكون لفاقدي البصر القدرة على التنبؤ بالطقس، إضافة إلى السمع الخارق.

وضعت الكتب الثلاثة في كفه الممدودة. انحنى خلف عربته، وفتح باب خزانة صغيرة من جهته. تحسس بيده داخلها، ثم أخرج كيسًا مجعدًا ملطخًا وبداخله الكتب الثلاثة. أو هذا ما ظننته في ذاك الحين. فلم أكتشف أنه وضع كتابًا رابعًا إلا بعد وصولي إلى المنزل. لابد أنه وضعه في تلك اللحظة. لم تكن لديه فرصة إلا تلك اللحظة.

أمسكت الكيس بإصبعين حذرًا. وسررت إذ لم يكن العجوز يستطيع رؤية تعابير وجهي. قلت له:

-شكرًا جزيلاً. وداعًا. أتمنى أن نرى بعضنا مرة أخرى قريبًا.

ما إن تفوهت بالكلمات حتى أدركت فجاجة قولي.

أجاب العجوز متغاضيًا عن زلة لساني:

-وداعًا.

قررت وأنا أسير نحو المنزل أن أتخلص من الكيس الكريه في طريقي، لكن منظر السماء منعني من تنفيذ ما عزمت عليه. فعندما صعدت الجسر العظيم رأيت أن العجوز كان مصيبًا. فغيوم العاصفة تتراكم قادمةً من الغرب، ساحبةً معها ستارًا من السيل الغزير. كان عليّ أن



أسرع بالعودة لأسبق هطوله، فلم يكن لدي الوقت كي أبحث عن سلة نفايات أرمي بها الكيس. ما أن دخلت منزلي حتى بدأ المطر في الهطول. كان باستطاعتي رمي الكيس في سلة النفايات في المطبخ، لكنني لم أفعل. فما كنت على أتم الاستعداد لفعله في الخارج صعُب عليّ فعله في المنزل. أحسست بأني سأنتهك أحد المقدسات. لا يجوز أن نرمي الكتب في القمامة، حتى لو كانت نسخًا غير ذات قيمة كالتي أحملها. سوف أضعها في مكان محجوب عن الأعين. وهذا أقرب ما يكون إلى التخلص منها في القمامة، إلا أن ضميري لن يؤنبني حينها.

لم يكن الكتاب الرابع الذي ظهر عندما أفرغت الكيس يشبه الكتب الأخرى. فهو أولاً في حالة ممتازة، رغم أن الطبعة قديمة. قلبته بين يديّ، وأنا أنظر إليه بفضول وحيرة. ولم أدرك إلا بعد حين أن لا ذرة غبار مست يدي بسبب هذا الكتاب.

لم يحمل غلافه البني أي كتابةٌ، لكن هذا ليس بمستغرب. فهذا الغلاف من القماش، وقد كان يحيط به على الأرجح غلاف ورقي ضاع مع الأيام. في منتصف الغلاف الأمامي ختم باهت يمثل ريشة كتابة، ومحبرة، وشيء يشبه ورقة ملفوفة من ورق الرق. وكانت أطراف الصفحات قد بهتت حتى شابهت لون الغلاف.

فتحت الكتاب. كانت الصفحة الأولى بنية اللون خالية، تليها صفحة بيضاء كُتب في أعلاها بأحرف صغيرة مائلة «أصغر مكتبة». لم يتناسب

هذا العنوان مع مظهر المجلد ولا نسقه. يبدو أن من سمّى هذا الكتاب كان متواضعًا. فالكتاب يستحق اسمًا يبعث الهيبة.

قلبت الصفحة فرأيت المفاجـأة الأولى. كانت تلك الصفحة هي التي تحتوي عادةً على بيانات الكتاب، لكنها كانت خالية. أما الصفحة الثالثة فلم تحوِ سـوى كلمة واحدة، وهي عنوان الكتاب كما أظن. لكن اسم المؤلف لم يكن موجودًا. طغى الشـك على أفكاري وأنا أنظر إلى بياض الأوراق أمام عيني. عجيب... عجيب!

ثـم خطر في بالي موضع قد أجد فيه معلومـات الطبعة. بعض الناشرين يضعون تلك الصفحة في آخر الكتاب. إذًا يجب أن أتفحص نهاية الكتاب، رغم أن هذا لا يفسر غياب اسـم المؤلف من بدايته. قلّبت الكتاب على عجالة، ولاحظت وأنا أتصفحه أنها روايـة عُنونت فصولها بالأرقام لا بالأسماء. وعندما وصلت النهاية، اكتشفت أن معلومات الكتاب لم تكن موجودة هناك أيضًـا. فبعد آخر صفحة من صفحـات الرواية، توجد صفحة بيضاء واحدة، تليها الصفحة البنيّة الختامية، ثم الغلاف.

إذًا فقـد تلقيت من العجوز طبعة غـير معروفة، لكاتب غير معروف! لم أسـمع من قبل عن كتاب يجمع بين غياب الاثنين، لكن طبعًا لم يكن هذا مستحيلاً. رغم أنني لست جاهلاً بعالم الكتب، فإن معرفتي ليست شاملة تامة. لكن ثمة مكان واحد يحوي جميع المعلومات عن كل الكتب المنشورة قانونيًا: المكتبة الوطنية. أغلقت الكتاب ووضعته على مكتبي،



ثم فتحت حاسوبي.

كان موقع المكتبة الوطنية الإلكتروني يتيح لزائريه أن يبحثوا عما يريدون بسرعـــة، رغم ما تحويه من أعداد ضخمة من الكتب. كتبت المعلومات الوحيدة التي أعرفها في خانة «العنــوان». وكنت واثقًا أن هذا البحث ســوف يحل غموض اللغز لأن التفسير المنطقي الآخر، وهو أن الطبعة غير مســجّلة، يقلب الموازين تمامًا بما لا يبشّر بالخير. صحيح أن مظهر الرجل العجوز كان رثًا بائسًا، لكنني أشك أنه يود التورط في بيع الكتب بطريقة غير قانونية. ولن يســمح له الباعة الآخرون المعتزّون بنزاهتهم تحت ظل الجسر العظيم أن يفلت بفعلته.

مرت نصــف دقيقة تقريبًا، ثم ظهرت رســالة على الشاشــة تنبأني أن فهرس المكتبة الوطنية لا يحوي أي مصنف بهذا العنوان. تنهدت بعمق، ومررت يدي اليسرى في شــعري. بدأ الوضع يصبح ســيئًا. ربما كنت مخطئًا في حكمي على الرجل العجوز. اســترجعت في ذاكرتي أجزاء من حوارنــا الوجيز كنت قــد صرفت عقلي عن التفكير بهــا، رغم أن من الواجب أن تثير شكوكي.

لكن ما زلت لا أصدق أن الشيخ الكفيف صاحب عربة المثلّجات كان غشاشًــا. فحدسي الذي نادرًا ما يخطئ يدافع عنــه بقوة. بقيت عيناي معلقتان بالشاشــة التي ما زالت تعرض رســالة البحث الفاشل، وأنا أحاول أن أفكر بتفســير آخر عدا أن أعمالاً غير قانونية تجري في الخفاء.



إن مـــا يخفف من فداحة الأمر أن الكتـــاب كان هدية ولم يباع، ما يعني أن لا مكســـب تحقق منه. إلا أن هذا طبعًا لا يسوّغ عدم وجود عنوان الكتاب ضمن مصنفات المكتبة الوطنية.

راودتني فكرة مستبعدة تمامًا، لكنني كنت كالغريق الذي يتعلق بقشة. ربما أخطأت في كتابـــة العنوان. كنت واثقًا بأنني لم أخطئ، فقد أغلقت الكتاب للتو، والكلمة صغيرة بسيطة، لكن أحيانًا تقع مثل هذه الهفوات العادية. ربما اختلف حرف واحد فقط، والحواسيب آلات دقيقة جدًا.

التقطت الكتاب البني من فوق المكتب وفتحته مرة أخرى.

ما رأيته في الصفحة الثالثة كان مســـتحيلاً! ارتفعت غصة في حلقي. لم يكن الاختـــلاف حرفًا واحدًا. كان العنوان مختلفًا تمامًا، ليســـت كلمة واحدة بل ثلاثًا رأيتها على الصفحة. اهتز الكتاب وأنا ممســـك به غير مصـــدق، حتى أدركت بعد حين أن يديّ هما التي ترتجفان. دســـتهما بين فخذيّ لأوقف ارتعاشـــهما. تمعّنت في تلك الكلمة الجديدة أحاول ما بوســـعي أن أجد تفسيرًا لهذا المستحيل، لكن خيالي خانني. لا يمكن لكتاب أن يبدّل عنوانه بنفســـه! هذه حقيقة لا مـــراء فيها. لكن هذا ما حدث. أي سحر دسّه العجوز لي؟ ولماذا؟

لن أجد الإجابة بجلوسي مكتوف اليدين هكذا، أرمي بنظراتي الخائفة نحـــو الصفحة الثالثة. يجب أن أفعل شـــيئًا. لكن ماذا أفعل؟ أتفحص الكتـــاب بدقة؟ لقد تصفحته فقط في المرة الأولى. لو في الأمر حيلة فلن



أكشفها إلا بهذه الطريقة. ورغم هذا فإن كفيّ المتعرقتين لم تحركا الكتاب البني. احتجت إلى كامل إرادتي كي أقرّب يدي من صفحاته.

قلبت الصفحة. أخذني الذهول عندما وقعت عيناي على بداية النص في الصفحة الخامسة. كان الكتاب رواية كما توقعت، لكنها ليست الرواية التي فتحتها قبل لحظات. فالفصول في هذه الرواية كانت تحمل أسماءً لا أرقامًا. والأحرف أصغر حجمًا، والمسافات بين الأسطر أقرب. ما كنت أحمله بين يديّ هو كتاب ثانٍ مختلف تمامًا.

لم أحتمل هـذا. رميت الكتاب بعيدًا عني كما لو كان شـيئًا سـاخنًا، وقمـت فزعًا من على الكرسي. وقع الكتاب على لوحة المفاتيح فضغط على بعض الأزرار. اختفى فجأة موقع المكتبة الوطنية من على الشاشة، وأطلقت السماعات أزيزًا عاليًا متقطعًا.

لولا الصوت لما تجرأت على لمس الكتاب ثانية. لكنني لم أستطع احتمال الصوت. كان كالوقـود الذي أججّ أعصابي الملتهبـة. تقدمت بحذر كأنني سأمسـك شيئًا قد يلدغني، وأبعدت الكتاب عن لوحة المفاتيح. توقف الأزيز فورًا، لكن لم تعد الصورة إلى الشاشة.

وقفت في منتصف الغرفـة بجانب الكرسي، تاركًا مسـافة بيني وبين مكتبي، وحملت الكتاب أمامي. خامرني شـعور بأن شيئًا ما سيحدث، لكني لم أعرف بالضبط ما هو، وبالتالي لم أعرف كيف أتأهب لمواجهته. مرت الدقائق بطيئة مشـحونة. وعندما لم يحـدث شيء أدركت أن من



البلاهة أن أقف هكذا منتظرًا. يجب أن أبادر بالتصرف.

استعدت رباطة جأشي إلى حد ما، وعرفت أن أمامي خياران لا ثالث لهما. إما أن أعيد الكتاب إلى الكيس القذر، وأضيف إليه الكتب الثلاثة وأرميها جميعًا في الحال، ليس في سلة القمامة في مطبخي، بل في أبعد حاوية نفايات يمكنني إيجادها في الخارج، أو ربما أرميها في النهر رغم الأمطار التي ما زالت تهطل غزيرةً. سوف أتحرر حينها من سبب كل متاعبي.

أو أفتح الكتاب ثانية.

لم يعجبني هذا الحل على الإطلاق. بل اقشعر جسمي مما قد أجد فيه. تذكرت شعوري عندما اهتزت الأرض بزلزال في أحد الأيام، وكان أسوأ ما في تلك التجربة هي فقدان الأرض من تحتي لصلابتها. إن الأرض الثابتة تحت قدمي هي الشيء الذي أعوّل عليه في كل تقلبات الحياة. وأنا هنا أخاطر بزلزلة شيء أهم: الواقع.

لكن ما الفائدة الآن؟ فالواقع قد تزعزع من جذوره. وإن استطعت رمي الكتاب بعيدًا عن عيني فلن يهجر ذاكرتي. لن أستطيع الاستمرار في حياتي بعيشة راضية متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث. سأكون كمن يدفن رأسه في الرمال. إن عاجلاً أو آجلاً، سأرزح بحمل الأسئلة التي لم أعرف لها إجابات. إذًا في النهاية لا أملك أنا أي خيار.

فتحت غلاف الكتاب ببطء كأن شيئًا سيقفز منه. رغم أنني تصورت ما سأجده في الصفحة الثالثة، فقد فزعت قليلاً عندما رأيت العنوان



الجديــد. كان العنوان هــذه المرة كلمتين. ولم يكن ثمــة حاجة لأقلّب صفحات الكتاب كي أعرف أنها رواية ثالثة جديدة.

لكننــي تصفحت الكتــاب كي أتأكد مــن فكرة خطــرت لي. قلبت الصفحــات بسرعة حتى وصلت إلى النهاية. كان الخط كبيرًا هذه المرة، والأســطر متباعدة، والفصول تحمل عناويــن وأرقامًا معًا. عدت إلى صفحة البداية بالطريقة نفسها، مقلبًا صفحات الكتاب. ولم يحدث أي تغيــير. يبدو إذًا أن الروايات تتغير فقــط عندما أغلق الكتاب. إن كان الكتاب مفتوحًا فإن النص لا يتغير.

أغلقت الكتاب ثم فتحته. فكرتي صائبة! بتأثير ســحر ما أصبحت بين يدي رواية جديدة. ظللت أغلق الكتاب وأفتحه مبتسمًا فرحًا وأنا أرى النتيجة نفســها. صحيح أنني لم أقترب من حل هــذا اللغز لكنني على الأقل عرفت ماذا ســيحدث، وهذا ما خفف توتري. عجيب كيف أن من السهل أن نتقبل المستحيل إذا زال خوفنا منه.

ولكي أثبت لنفسي أنني ما عدت أخشــى هــذا الكتاب البنيّ، أخذت أفتحه وأغلقه بسرعة مــرات متتالية. ملأني الذهول وأنا أرى العناوين تتلاحــق متغيرةً في الصفحــة الثالثة كلما فتحت الكتــاب. اجتاحتني حماسة غامرة كتلك التي يشعر بها الطفل حين يُعطى لعبة مسلية، تصدر مؤثرات غير عادية. أدركت حينئذ أن عنوان الكتاب كان مناسبًا جدًا. فهذه هي حقًا أصغر مكتبة، وصغرها بعدد مجلداتها لا بعدد مصنفاتها.



وما أصغر من مجلد واحد؟!

ظللت أفتـح الكتاب وأغلقه أكثر من عشر مرات، ثم تجمدت حركتي فجـأة وأنا أكاد أغلقه. هبط عليّ فجأة سـؤال أحال سروري إلى فزع. ماذا يحدث للرواية بعـد أن أغلق الكتاب؟ كل ما يمكنني الجزم به من اكتشافاتي حتى الآن هو أنها تختفي دون أيما أثر. لا يظهر العنوان إلا مرة واحدة فحسـب، أي أنني خسرت للتو أكثر من عشرة كتب بلا أمل في استعادتها.. بسبب تهوري!

لا يمكن أن أسـمح لهذا الأمر أن يتكرر. فتحت الكتاب بيديّ الاثنتين بشـدة كيلا يُغلق دون قصد. أخذت الأفكار تتسارع في عقلي في سباق محموم. كيف أحفظ شيئًا قصير العمر، كعمل أدبي لا يعيش إلا إذا كان الكتـاب مفتوحًا؟ لم يجد عقلي إجابة. هذا أنـا.. لا أجيد التفكير تحت الضغوط. ولهذا لا أكتب أبدًا إن حُدد لي موعد للتسليم.

كدت أسـلم نفسي للغرق في بحر اليأس، لكـن عندها خطر لي خاطر بديهي. كدت أضرب جبيني بيدي عقابًـا لي على غبائي، لولا أن يديّ مشغولتان بإمساك الكتاب. الحل هو أن أنسخ صفحات الكتاب طبعًا! لم يكن هناك داعٍ للعجلة. يمكنني الانتظار لحين توقف المطر. فزخّات الربيع لا تدوم، وهذه الروايـة التي تضمها دفتي الكتاب في أمان طالما أبقيته مفتوحًا. لكن سرعان ما نفد صبري. أمسكت الكتاب بيدٍ واحدة مفتوحًا، وهرعت إلى الردهة. أمسـكت معطفي ومظلتي، واتجهت إلى



الصالة بسرعة. لقيت صعوبة في ارتداء معطفي لأن يديّ كانتا تمسكان الكتاب. خرجت من منزلي فألصقت المظلة برأسي، والمجلد البني تحت ذقني لأحميه من وابل المطر.

تطاير الماء رذاذًا من بين خطواتي المتسارعة على الرصيف المبلل، ولم أعبأ بأن حذائي قد امتلأ بالماء بمجرد سيري لبضع خطوات، ولم أهتم بأن الماء قد أغرق طرفيّ بنطالي حتى وصل ركبتيّ. ومن حسن الحظ أن متجر القرطاسية الصغير الذي يحوي آلة نسخ لم يكن بعيدًا. دخلت وأنا أهز مظلتي خلفي لأبعد عنها البلل، فنظرت إليّ صاحبة المتجر في عجب. كان من الواضح أن المرأة لم تتوقع قدوم أي زبائن في هذا المطر الغزير. ولابد أنها تساءلت أي ضرورةٍ دفعت بي إلى متجرها في هذه الظروف، غير أنها لم تقل أي شيء.

قلت لها إنني أريد أن أنسخ شيئًا، ولوحت بالكتاب المفتوح في يدي. لم أقدم لها توضيحًا رغم أن الأدب يملي ذلك. وماذا كنت سأقول؟ عرضت عليّ بلطفٍ أن تنسخ الكتاب بنفسها، لكنني رفضت رفضًا حادًا لخوفي من أن يلمس المجلد شخص غيري. رفعت المرأة كتفها غير عابئة، وأشارت إلى آلة النسخ في الزاوية، ثم عادت إلى قراءة صحيفتها خلف منضدة المحاسبة.

وضعت الكتاب على سطح الآلة الزجاجي، وأغلقت غطائها البلاستيكي الثقيل، ثم ضغطت الزر الأخضر. مسح ضوء ساطع



الكتاب يميناً ثم شـــمالاً، وبعد لحظة خرجت نسخة من الصفحة الثالثة من فتحـــة جانبية. هذا ما كنت آمل أنا أن يحدث، لكن ما خرج كان... لا شيء. ورقة بيضاء. قلبتها بين يدي راجيًا أن تكون الطباعة من الجهة الأخـــرى، لكن الجانبين كانا فارغين. رفعـــت الغطاء وقلبت الكتاب. كان العنوان ظاهرًا لعيني، لكنه خفي في الآلة.

لاحظت صاحبة المتجر أنني أقلب الكتاب والورقة في يدي، فســـألتني إن كنت أحتاج مساعدة، أجبتها بسرعة بأن كل شيء على ما يرام. ولكي أزيل شكوكها تابعت نسخ الصفحات. ظللت أفتح صفحات جديدة وأضغط الزر في أعلى الآلة، فتخرج الآلـــة ورقات خاوية تمامًا من أي كتابة. لم يكن باســـتطاعة المرأة من مكانها أن تراها، فأخفضت بصرها إلى الصحيفة التي تقرأها، ظانةً أن زبونها غريب الأطوار قد فهم كيف تعمل الآلة.

خرجت بفائدة واحدة من هذا النسخ عديم الجدوى، وهي أنه منحني فرصة كي ألملم شـــتات ذهني بعد هذه المفاجأة الجديدة. إذًا فلا يمكن أن أنســـخ صفحات الكتاب. أعتقد أن الشيء ذاته ســـيحدث لو أنني صورته بكاميرا، أو مسحته بالماســـحة الضوئية. يجب ألا أضيع وقتي بتجربة ذلك. إذًا ماذا أفعل بهذه الأعمال الأدبية الذي لا تعمّر طويلاً؟ لا يمكـــن أن أترك الكتاب مفتوحًا طـــوال الوقت لأنقذ عملاً واحدًا، لأنني عندئذ أحرم نفسي من الوصول إلى بقية الأعمال الأدبية. ولو أنني



أردت الحصـــول على عمل آخر، فهذا المفتوح ســيضيع إلى الأبد. لم أرَ مخرجًا من هذا المأزق.

تكوّنت في عقلي خاطرة ســوداوية بعثت قشــعريرةً في جســدي كله. ربما يكون هــذا هو المقصد! ربما يكون الأمر كلــه حيلة حيكت عمدًا كي يوّرطني بهذا الكتاب. شــخص خبيث يضمر الشر تفتّق ذهنه عن «أصغر مكتبة». شخص واتته الوقاحة ليتظاهر بأنه شيخ أعمى محسن، يدفــع عربة مثلّجات، ويوزع الكتب بــكل كرم. إن أردت أن أنفذ من هذا الفخ فلا سبيل إلا بمواجهته مرة ثانية.

أخذت الأوراق الخالية التي قارب عددها الخمسين، وطويتها بالطول ووضعتها تحت ذراعي. ترددت لحظة بعد أن رفعت الغطاء البلاستيكي، ثم أغلقت الكتاب بسرعة، ودسسته في جيب معطفي الكبير. وماذا لو نقصت رواية؟ ما الفرق؟ دنوت مــن المنضدة، ووضعت عليها نقودًا تكفي لســداد حســابي وتزيد. غادرت بصمت، وأنا أشــعر بنظراتها المتسائلة معلقة بظهري.

كان المطر ما زال مســتمرًا، ولكنه قلّ حتى أصبح مجرد قطرات ترشها الســماء. فتحت مظلتي، وحثثت خطاي أتبع طريقًا مختصرًا نحو الجسر العظيــم. مررت بزقاق فرميت حزمة الأوراق الفارغة في أقرب حاوية دون أن أتوقــف. لاحظت بينما أنا أجري أن الســحب بدأت تنقشــع وتتفرق، حتى رأيت وأنا أقترب من وجهتي أن أشعة الشمس المختبئة



بدأت تتسلل من بين السحب.

كان جمع كبير من النـــاس واقفين تحت الجسر. وكثير منهم ممن لم يجلبوا معهم مظلة مثلي أول مرة قد وقفوا في طرف الجانب المغطّى من الجسر، ينتظـــرون توقف المطر كي يرحلوا. كانوا يحجبـــون عن نظري الجانب البعيد من الســـاحة حيث كان العجوز موقفًا عربته. شققت طريقي إلى منتصف الحشـــد، وقد قلّت أعداد الناس فيه، لكنني أحسست أنني لن أجده هناك. فقد كان يقف تحت الســـماء لا يظلّله شيء عندما رأيته، فلا شك إذًا أن هطول المطر دفعه إلى أن يحتمي بمكان ما تحت هيكل الجسر المعدني العريض.

طافت عيناي المكان باحثًا عن أي أثر لعربة المثلجات القديمة. أنا واثق أن عيني ســـتجدانها فورًا لو أنها كانت موجودة. صحيح أن المســـاحة تحت الجسر كبيرة، لكن يستحيل أن يمر دون أن ألاحظ. أغادر العجوز في غيابي؟ هذا غير ممكن. أيســـتطيع أعمى يدفع عربة ثقيلة أن يسير في عاصفـــة رعدية؟ لا هذا تهور وخطر. إلا إذا كان العمى وكل ما ظهر به أمامي تصنعًا.

تجولت بين أكشـــاك الكتب لدقائق، لا أدري مـــاذا أفعل، وحنقي من الأمر يتزايد. ومن بين جيش التســـاؤلات الذي يحاصرني ارتفع سؤال واحـــد فقط. لماذا أنا؟ لمـــاذا حدث هذا لي أنا من بـــين جميع الخلق؟ ما الذي يميزني عن جموع البشر المحتشـــدين في هذا المكان؟ ألأني كاتب؟



كاتب فقد القدرة على التأليف منذ فترة ليست بالقصيرة؟ ألا يكفي هذا عذابًا؟ لماذا أُعطيت هذا الكتاب؟

وجدت نفسي في سيري على غير هدى قريبًا من البائع الذي تحدثت معه قبل اللقاء المشؤوم مباشرةً. فكرت أن أسأله عن العجوز. لا يمكن ألا يكون قد انتبه إليه. لكنني لم أسأل. إلقاء الأسئلة لن يجرّ عليّ إلا الوقوع في شرك التوضيحات والتفسيرات لشيء لا أملك له تفسيرًا. بل قد اضطر إلى إخراج المجلد من جيبي لأريه إياه، وهذا ما أريد أن أتجنبه بأي ثمن. لكن ثمة سبب آخر منعني من السؤال؛ شيء يرعبني أيما رعب. ماذا لو أن البائع قال إنه لم يرَ رجلاً كفيفًا يدفع عربة مثلجات؟ لم يعد هناك داعٍ لبقائي هنا، والجو قد تحسن كثيرًا. وقد قلّ عدد مرتادي السوق تحت الجسر العظيم. اتجهت هذه المرة إلى منزلي ببطء، فلم يعد لدي سبب للعجلة. وقبل أن أبتعد كثيرًا عن المكان بدأ أنفي يلتقط روائح غريبة. رائحة الأوزون هي ما شممتها أولاً، ثم تتابعت الروائح بعدها كثيفةً مركّزة في كل مكان، وقد أثارها المطر؛ رائحة الأوراق المخضرة فوق قمم الزيزفون، والحشائش اليافعة الرطبة، والدُبال الذي يغطي الأرض في الحديقة الصغيرة، والأزهار المغسولة في الأصائص. حتى الماء المتجمع في برك كبيرة على الرصيف بدا لي أن له رائحة خاصة به.

وما بين الفينة والأخرى، أشم رائحة ضعيفة تتدارى خلف هذه الروائح القوية، وقد بدت لي تلك الرائحة مألوفة. إما أنها موجودة في كل مكان



أو أنها تلاحقنـي. كانت رائحة كريهة كنتانة رائحـة العرق، لكنها مع هذا مختلفة تثير في عقلي ذكريات شيء قاسٍ وشاق ومؤلم. حاولت فكّ شـيفرتها ولم أنجح. لكن لم يضع تعبي هبـاءً. خطرت لي بالصدفة وأنا أفكر بالرائحة الغامضـة فكرة كان يجب أن تراودني قبل تلك اللحظة. قبل أن أفكر بالنسخ طبعًا. أسرعت في السير حتى كدت أجري.

أبعدت شاشة الحاسوب ولوحة المفاتيح عن مكتبي لأنني لن أحتاجها. كنت سأنجز عملي بشـكل أسرع لو أنني استعملت الحاسوب، لكنني لا أكتب أبدًا بالحاسـوب. أخرجت مفكرة كبـيرة ظلت فارغة لوقت طويل. لم أبدأ في النسـخ من الكتاب مبـاشرةً. داهمني الخوف عندما أمسـكت بقلمي من أن هذا لن يفيد. ماذا لو أن القلم لم يخلف أي أثر على الورقة رغم أنه جديد؟ لا أعلم. لكن ماذا سأخسر إن حاولت؟ لن تسوء الأمور أكثر مما ساءت.

لم أستطع كتم تنهيدة ارتياح زفرتها رئتاي عندما ظهر عنوان الرواية بعد لحظـات في رأس الصفحة الأولى.. واضح.. مقـروء. أغلقت مفكرتي للحظة ثم فتحتها. لم تحدث أي معجزة. ظلت الكتابة في المفكرة كما يجب أن تكون. قلبت صفحة الكتاب واستويت قاعدًا على الكرسي بارتياح. كتبت تحت العنوان «الفصل الأول»، ثم بدأت بكتابة الفقرة الأولى.

أمامي عمل طويل منهك. فالروايـة مطبوعة بأحرف متناهية الصغر، وبأسـطر متقاربة جدًا. لكن لا راحة لمن احترف الكتابة، بل هو الشقاء



دائم في حياة الكاتــب. والأمل والألم رفيقاه؛ أمــلٌ في التنعم بالراحة في مهنتــه، وألمٌ لأن هذا لن يتحقق أبدًا. وهذا ما يجعل ســعادة النهاية عظيمة، فعندما أنسخ الصفحة الأخيرة سوف أغلق الكتاب. وبهذا لن تعيش الرواية إلا في مســودتي. ومن سيلومني عندها إن أضفت اسمي فوق العنوان؟




مكتبة
الفكر
الجديد

المكتبة النفيسة

المكتبة النفيســة كالمعدة؛ يجب أن يحرص الإنسان أشد الحرص على ما يدخل في جوفها. لا ينبغي أن يدخل المكتبة النفيســة إلا الكتب اللائقة بها. وإن تسلل كتاب إلى مكتبة نفيسة وهو غير جدير بها، فإن هذا يكون كما لو أنك ابتلعت باستهتار شيئًا غير صالح للاستهلاك البشري. سوف تشــعر طبعًا بالاشــمئزاز والغثيان. وهذا بالضبط ما شعرت به عندما دخلت مكتبتي فوجدت كتابًا لم أضعه فيها. غلبني الاشمئزاز حتى إنه أخرس تمامًا الســؤال المنطقي في هذا الموقف: كيف وصل ذاك الكتاب إلى هنا؟ لكن السؤال البديهي الذي يطرأ في ذهن الشخص الذي تحتوي معدته على شيء ضار ليس كيف وصل هذا الشيء إلى معدتي، بل كيف أتخلص منه. فالصحة أهم بكثير من إرضاء الفضول البحت.

أمســكت الكتاب بإصبعين، فســحبته من مكانه. لم يخامرني شــك في أنــه دخيل على مكتبتي، وإن لم يكن ثمة ســبب ســوى حجمه فذلك كافٍ. وهــذا ما لفت انتباهي إليه أساسًــا، وهو قابع في الرف المزدحم الذي يغطي جدارًا كاملاً من جدران مكتبتي. لم أحتقر شــيئًا في حياتي كاحتقاري للكتب ذات الغلاف الورقي. إن الغلاف الورقي أسوأ إهانة يمكن توجيهها إلى شيء عظيم لا ينبغي له إلا التبجيل والإجلال في كل

الأحوال. لا أحد سوى الجهلة والسفهاء يدّعون أن من الخطأ أن تحكم علـى الكتاب من غلافه. يقولون إن العمـل الأدبي العظيم يظل عظيمًا بغض النظر عن طريقة تجليده. كلام فـارغ! يجب أن يعكس التغليف مكنون الكتاب. أترضى بأن تغلّف جوهرة بأوراق جرائد قديمة مثلاً؟ وما العمل الأدبي الرفيع إن لم يكن أجمل جوهرة يحملها المرء؟!

لم أسـمح للعنوان بأن يخدعني. كان العنوان يليـق بطبعة غالية مجلّدة تجليدًا فاخرًا، وبأحرف مذهّبة، أمـا وهو على هذه الطبعة التافهة ذات الغـلاف الورقي فهو تدنيس وأيما تدنيس. ومـاذا ننتظر من معدومي الضمير الذين يغلفون كتبًا بالورق؟! لا تقديس للكتب في قلوبهم، ولن يتورّعوا عن استغلال أفضل الأسماء وأعظمها، إن رأوا أنهم سيجنون من ورائها مالاً الحق أنني لا أعرف إلى أين سوف ينتهي بنا المطاف إن استمرينا في تهميش كل شيء والعبث به بهذه الطريقة.

هرعت نحو المطبخ مادًّا ذراعي أمامي، حاملاً ذلك الشيء بعيدًا عني. ضغطت على دواسة سلة النفايات الموجودة تحت المغسلة، ثم أفلته من بين إبهامي وسـبابتي. أصدر الكتاب الورقي صوتًا مكتومًا عندما وقع في القمامـة حيث ينتمي. ضربت كفي ببعض أنفـض عنهما أي أثر له. يجدر بالمرء ألا يكون مرهف الإحسـاس في هـذه المواقف، بل حازمًا صارمًا. عليه أن يعامل هذه الأشياء كما يعامل حشرة ضارة، كما يعامل براغيث الفِراش أو الصراصير. لا تنزل عليها رأفة ولا رحمة.



رجعت إلى مكتبتي مطمئن البال، لأجد مفاجـأة مزعجة تنتظرني. رميت الكتـاب ذا الغلاف الورقي منذ ثوانٍ، ورغم هـذا أراه الآن منتصبًا حيث وجدته قبـل لحظات: في مكتبتي! تصاعدت الدمـاء إلى وجهي. ما معنى هذا؟ من قعر القمامة إلى رف المكتبة؟! لم يكتفِ الكتاب بأن يتسلل إلى مكان لا يحق له الدخول إليه، بل إنه أفسد ولوّث كل شيء حوله. يا للدناءة!

خلعـت رداء الحذر، وقبضت عـلى الدخيل، فنزعته مـن مكانه بقوة أوقعـت الفوضى في الكتب المرتبة ترتيبًا دقيقًـا. رغم أنني لا أطيق أن تكون كتبي مبعثرة عـلى الأرفف، لكني سـأؤجل ترتيبها حتى أتولى أمر هذا المتطفـل وأتخلص منه إلى الأبد. لم أتردد لحظة. فتحت الكتاب في منتصفه تقريبًا، وفعلت شـيئًا لم أفعله في حياتي قط: مزّقت الكتاب نصفين. لكن حتى هذا لم يفلح في إخماد سـورة الغضب التي تحتدم في قلبي، فظللت أمزّقه بعنف لم يهمد.

تناثرت الصفحات الممزقة على السـجادة. كانت تلك الفوضى ستثير انزعاجـي في الظروف العاديـة، لكنها في تلك اللحظـة لم تضايقني. الفـوضى كانت مثـل الحطب الـذي أضرم نار غضبـي. فقدت أي سـلطة كنت أملكها على أعصابي. جلست على الأرض، وبدأت أقطّع الصفحات إلى قطعٍ صغـيرة جدًا، فأصبحت كالقصاصات التي تُرمى في الاحتفالات. ولم أتوقف إلا عندما نالـت الصفحة الأخيرة المصير ذاته على يدي. وعندما لم يبقَ شيئًا أنفّس فيه غضبي الشديد، بدأ الهدوء



يستقر في صدري.

شعرت بالخجل مما فعلت، وأنا أنظر إلى قصاصات الأوراق المبعثرة على الأرض. ليس من طبعي أن يفور غضبي بهذه الطريقة. لكن الأسوأ مما فعلت هو ما شعرت به وأنا أفعله. شعرت ببهجة تصل إلى درجة السعادة. سألت نفسي إن كنت قد فقدت صوابي. لا أنكر أنني شعرت بالإساءة والاستفزاز، بل أستطيع أن أقول إن عدوانًا عظيمًا قد وقع عليّ، لكن هذا ليس مسوغًا لما فعلت. يجب أن يسيطر الإنسان على أعصابه. كيف سيكون حالنا إن نحن أطلقنا العنان لفوراتنا وثوراتنا؟ وفوق هذا فقد سبّبتُ فوضى لا أقبلها. أنا الذي أعتز كل الاعتزاز بحبي للترتيب والنظافة. تنهدت ونهضت عن الأرض. فتحت باب خزانة الردهة، وأخرجت المكنسة الكهربائية، ثم عدت إلى المكتبة. استغرق تنظيفي الدقيق وقتًا غير قصير، كما لو أن المكنسة ستمحو آثار تصرفي القبيح. اشتدّت سخونة المكنسة فأطفأتها. فصلت خرطومها وأعدتها مكانها في الخزانة، ثم قررت أن أستحمّ بعد هذا التعب.

خرجت من الحمام نشيطًا هادئًا. كنت أطمئن نفسي أنني مررت بتجربة سيئة وأنها انتهت، وأن أفضل ما يمكنني عمله الآن هو أن أنسى الأمر تمامًا. ولماذا أثقل عقلي في التفكير بطريقة وصول الكتاب إلى المكتبة؟ هذا لا يهمني أبدًا. لن تزيدني معرفة الإجابة إلا ثقلاً على كاهلي، كما أنني لا أستبعد أنني لن أعرف الإجابة أبدًا. خلّصت نفسي الآن من



الكتاب المزعج، ولم يعد للأمر أهمية.

لكن آمالي وُئدت وهي صغيرة. من لمحة واحدة فحسب من باب المكتبة رأيت أن متاعبي بدأت من جديد. كان الكتاب سليمًا كاملاً، منتصبًا هناك بين مجلدين قيّمين كأنه يسخر بي. احمرّ وجهي سخطًا ثانية، فأغلقت عيني وتنفست بعمق، وأنا أهز برأسي مفكرًا.

ظننت أن غضبي سينال مني مرة أخرى. لكن ما ساعدني على أن أكبحه هو تخوفي مما قد أفعل إن أعماني الغضب. لن يكون العمى في هذه الظروف حليفًا موفقًا. يجب أن أكون هادئًا متزنًا. لقد جرّبت القوة ولم تنفع. والآن يجب أن أجرّب طريقة أذكى. يجب أن أخطط لما سأفعله. فإن لم تسحق غريمك بقوتك، فاغلبه بذكائك.

من المؤسف ألا تكون لدي خبرة في هذه الأمور. لم أفكر يومًا كيف أتخلص من أي كتاب. فحتى هذه اللحظة لم أعرف إلا اقتناء الكتب، حتى أصبت مهارة وبراعة في هذا المجال، ومكتبتي خير برهان. كيف أتخلص من كتاب؟ وليس أي كتاب عادي؛ كتاب يرفض الاختفاء ويتمادى في رفضه، كتاب يتحداني بوقاحته. جلست على الكرسي المقابل لرف الكتب ذاك، وأخذت أحدّق بكعب الكتاب الدخيل القصير الهزيل. بدأت أصابع يدي اليسرى تمسح على حاجبيّ كعادتي عندما أغرق في التفكير العميق.

لاحت لي مقارنة غريبة بعد تفكير قصير. لو أنني قررت أن أنتحر



لوجدت نفسي واقعًا في حيرة مماثلة، ولن أعرف ماذا سأفعل بالضبط.

أنا واثق أنه ليس من السهل على الإنسان أن يقتل نفسه، رغم أن الفكرة قد تبدو سهلة. لو أنني قررت الانتحار، فإن في جعبتي مخزون وافر ومتنوع من التجارب الانتحارية السابقة، خاصةً التي نجح منفذوها في إنجازها. ربما أستطيع أن أطبّق إحدى وسائلهم على الكتاب ذي الغلاف الورقي.

راقت لي الفكرة، وبدت ممكنة التنفيذ. كل ما بقي هو أن أختار الطريقة. درست الطرق الكثيرة التي خطرت في ذهني، ثم قررت أن الغرق هو أفضل وسيلة. لو اعتزمت الانتحار فكنت سأختار الغرق. أولاً الموت غرقًا لا يخلف دمًا، وأنا أرتعب من الدماء بشكل يفوق الوصف. ثانيًا تُقبض حياة الغريق تحت الماء، وليس على مرأى من الشهود، فلن تصدم أحدًا بمنظر موتك. وثالثًا، في الغرق لمحة من الرومانسية. كم عاشقٍ مغرمٍ في أعظم قصص الأدب أنهى حكايته بالغوص الأبدي.

لا أحتاج لتنفيذ عملية الغرق إلا شيئين، أحدهما عندي في المنزل. ذهبت إلى المخزن، ونزعت الغطاء عن الصندوق الكرتوني الكبير الذي أحفظ فيه الأدوات والمعدات المختلفة، وأخرجت لفة حبال كبيرة. كان الحبل رفيعًا فلا يمكن أن أستخدمه لنفسي، لكنه سيكون ممتازًا لذلك الكتاب اللعين. قطعت منه أكثر مما أحتاج من باب الاحتياط.

أما الشيء الثاني فكان يجب أن أخرج من منزلي لأبحث عنه، رغم أني لا



أعلم أين أبحث عنه. أين أجد حجرًا كبيرًا في وسـط المدينة؟ لا يمكن طبعًـا أن أكسر قطعة من حجارة الرصيـف، أو واجهة أحد المباني. قد تكون الحديقة العامة هي المكان الوحيد الذي أجد فيه حجرًا، فقررت الذهـاب إلى هناك. وضعت الكتاب والحبـل في حقيبة قبل أن أخرج. كان من الممكن أن أضعهما في جيبي، لكنني سـأحتاج إلى الحقيبة لحمل الحجر. سيكون منظري سخيفًا ومريبًا إن رآني الناس أسير في الشوارع أحمل حجرًا كبيرًا في يدي.

لم يكن سهلاً أن أجد حجرًا في الحديقة. كانت الأحجار أقل مما توقعت، وكان يجب كذلك أن أتحين الفرصة المناسـبة لألتقـط الحجر دون أن يلاحظني أحد. وجدت حوضًا مسـتديرًا من الأزهار في منتصف مرجٍ أخضر، تحيط به قطع من الأحجار المكسورة مدفونٌ نصفها في الأرض. اضطـررت إلى الانتظار فـترة طويلة إلى أن تأكدت مـن اختلائي، ثم تطلب اقتلاعه جهدًا شـاقًا. حتى إنني لم أجد وقتًـا كي أنظف نصفه السفلي من التراب. وضعته مستعجلاً في حقيبتي وابتعدت عن المكان، مخلّفًا ورائي حفرة في حلقة حجارة الحوض، تشـبه الفجوة التي يخلّفها ضرس مخلوع في الفم.

وصلت إلى الجـسر لاهث الأنفاس. كان الحجر أثقـل مما يبدو، حتى اضطررت إلى حمل الحقيبة تحت ذراعي. وقفت في منتصف الجسر، لأن الماء في تلك الناحية كان عميقًا وجريانه جارفًا. ما غرق في تلك الناحية



لا يعود إلى السطح أبدًا. لكن اكتشفت أن تنفيذ مهمتي لن يكون يسيرًا. فرغم قلة العابرين فإن السيارات المارّة كانت كثيرة، ومنها سيارات الشرطة. يجب ألا ألفت الانتباه لنفسي.

جلست على الأرض ووجهي من ناحية الحاجز، ثم أخرجت الحجر من الحقيبة. كنت أدعو ألا ينتبه أي شخص عابر في الطريق إلى ما أفعله. ومن يراني على تلك الوضعية سيظن على الأرجح أني معتوه أو سكران، لكنه لن يفكر أنني سأنتحر. والناس على أي حال لا يلقون بالاً لما يجري خارج سياراتهم. ربطت أحد طرفيّ الحبل الرفيع حول الحجر بشدة، والطرف الآخر حول الكتاب.

وقفت بعد ذلك ووضعت الحجر فوق الحاجز. لم أسقطه فورًا، بل وقفت ساكنًا تمامًا أتظاهر بأنني سائح يستمتع بمنظر النهر من أعلى الجسر. وعندما حانت لحظة لم تمر فيها سيارات كثيرة، دفعت الحجر والكتاب معه. استغرق سقوطهما وقتًا أطول مما ظننت، والصوت الذي نتج عن ارتطامهما بسطح الماء كان عاليًا. ضرب الحجر الماء فأحدث طرطشة عالية، وسحب الكتاب معه كأنه ذيله.

لو أن شخصًا كان يقف على ضفة النهر القريبة من الجسر فسوف يلاحظ ما فعلته. لذا ابتعدت بسرعة عن مكاني، كيلا يربط أحد بيني وبين الشيء الذي سقط في الماء. بعد أن ابتعدت مسافة لا بأس بها تحوّل خوفي إلى راحة بالغة ومعنويات مرتفعة بسبب نجاح مهمتي. كانت



يداي متسـخـتين ومعطفي قذرًا من نبـش الأرض، لكنني لم أعر ذلك اهتمامًا. لقد تخلصت من الكتاب... هذا هو ما يهم. فليرقد غير مأسوف عليه، مدفونًا في الوحل في قاع النهر.

لكن بدلاً من أن يكون الكتـاب حيث جرّه الحجر، وجدته ينتظرني في مكتبتي حالما وصلت المنزل. لم يكن مبلـلاً ولا موحلاً، بالعكس كان نظيفًـا جافًا. لم يتملكنـي الغضب هذه المرة كما حـدث قبلها. قررت باستسلام أن الأمور تجاوزت الحد. ولكل شيء حده، وليست الفظاظة ولا الوقاحة اسـتثناءً من هذه القاعدة. كيف يدوّخني كتاب ذو غلاف ورقي وأحتار فيه؟! أصبحت المسألة مسألة شرف وكرامة.

تقلّبت بقية طـرق الانتحار في خيالي، محاولاً بجهد أن أتمالك أعصابي، وأنا أنظف نفسي في الحمّام. إن القفز من الأماكن المرتفعة هو الخيار الثاني المفضـل بين المنتحرين، وفي النهايات الأدبية. كم من بطل في الروايات اختار موته بهذه الطريقة. سـوف يكون هناك دماء ولا شك، وكذلك شـهود مصدومون من المنظر المفزع، لكن لا مناص من حدوث ذلك. ضميري ارتاح الآن. فلو أنني لم أجرّب الغرق أولاً لكِلت اللوم لنفسي. فلا لوم عليّ الآن بسبب فشل تلك الطريقة.

لم تكن الخطة الجديدة تحتاج تدابير مطولـة. أخذت الكتاب من الرف مـرة أخرى، وارتديت معطفي غير مبالٍ ببلله. لولا نفاد صبري لكنت جففته قليلاً بمجفف الشعر. يجب أن أضع حدًا نهائيًا فوريًا لهذه المهزلة.



مـــا زال الكتاب يثير أعصابي مرة تلو الأخرى، وهذا أمر لا تحمد عقباه لرجل مثلي يعاني من ارتفاع ضغط الدم.

قررت أن أصعد إلى ســـطح أعلى مبنى في المدينـــة، لأن هذا هو أفضل موضع لأداء مهمتي، رغم أن أي مبنى أقل ارتفاعًا ســـيؤدي الغرض.

كان على سطح المبنى منصة زوار للمراقبة، وعندما تكون الرياح هامدة كما هي اليوم فإنهم يســـمحون للزوار بأن يطلّوا منها. كان يحيط بالمطلّ حاجزًا عاليًا من الأســـلاك، ليمنع ســـقوط أي شخص، عمدًا أو بغير عمد، إلى حتفه المحتوم من ارتفاع شـــاهق، وأكثر من ثلاثين طابقًا. لو كان الانتحار نيتي لما كان الأمر ســـهلاً، لكن قتل كتاب بغلافه الورقي سيكون أيسر

ومع هذا لم تبتعد المصاعب عني كثيرًا. فالشخص الوحيد الموجود على سطح المبنى كان حارسًا يرتدي زيّه الرسمي. لو أن هناك زوارًا آخرين، ولو أن معطفي لم يكن في مقدمتـــه بقعة كبيرة، لصرف الحارس انتباهه عني. لكنه، وحالي كذلـــك، لم يرفع عينيه عني قط، مما أعاقني وصعّب عـــليّ مهمتي. قضيت عشرين دقيقة تقريبًـــا أدور حول المنصة، أتظاهر بالتفرج على مناظر المدينة قبل أن تتاح لي فرصة التنفيذ.

شـــخص ما اتصل بالحارس عن طريق الراديو اللاســـلكيّ. وبينما هو يتلفـــت يمنة ويسرة، يبحـــث عن أفضل مكان للاســـتقبال، أخرجت الكتاب من جيبي، وقذفته من فوق السور. لم يلاحظ الرجل. انتظرت



حتى أنهى مكالمته، وأومأت برأسي له محييًا وأنا أبتسم ابتسامة عريضة، ثـــم اتجهت نحو المصعد. كاد الفخر والفرح يطيران بي. وهل هو إنجاز بسيط أن تغلب محترفًا بذكائك؟

تخيلـــت وأنـــا أصل الدور الأرضيّ أنني ســـأجد حشـــدًا مـــن الناس متجمهرين حول الكتاب الصريع. لكنني لم أجد أحدًا. وجدت الشارع يعج بالناس المنهمكين بأشغالهم. ألهذه الدرجة وصلت بهم اللامبالاة؟ ألا يهتمون بمصير كتاب؟ حتى لو كان هذا الكتاب مجرد كتاب مغلف بـــورقٍ مقوى؟ ثم أدركت أننـــي اتهمت العابرين ظلـــمًا. كيف لهم أن يظهروا تعاطفهم في حين أن لا شيء وقع؟ لم أجد الكتاب على الأرض رغم أنني بحثت في كل ناحية.

عدت إلى المنزل تسحقني نبوءة سوداء تحققت حالما دخلت إلى مكتبتي. وجدت الكتاب، كما وجدته في كل المـــرات الماضية، ينتظرني في المكان عينه بين أرفف المكتبة. إن هذا العناد شيء مخزٍ حقًا!

لم يـــترك لي الكتاب خيارًا آخر. لن أتعامل معه برفق بعد الآن. ومخيلتي تزخر بوســـائل انتحارية أشـــد دموية من تلك التـــي جربتها. اخترت أحدها. إن كانت هذه الوســـيلة تليق بامـــرأة من أرقى بطلات الأدب فســـوف تليق ولا شـــك بكتاب وضيع كهذا. سحبت الكتاب القبيح، واتجهت مباشرة إلى محطة القطار.

لم يُســـمح لي بالوصول إلى رصيف القطارات دون تذكرة، فاشـــتريت



تذكـرة إلى أقرب وجهة، رغـم أنني لن أسـافر إلى أي مكان. نظرت إلى جـدول مواعيد القطارات لأعرف إلى أي رصيف سـيصل القطار القادم، ثـم اتجهت إليه. ابتعدت عن الركاب الذيـن ينتظرون القطار حتى لا يكون هناك شـهود. وصل قطار بعد حـوالي عشر دقائق، يجر خلفه سلسـلة طويلة من العربات. تركت العربتين الأوليين تمرّان، ثم أشحت وجهي بعيدًا ورميت الكتاب تحت عجلات العربة الثالثة.

راودتني نفسي بعد أن مرّ القطار أن أنظر إلى القضبان، لكنني قاومت. لم أكن لأحتمل المنظر المريع؛ منظر بقايا الكتاب الصغير الممزق. صحيح أن الكتاب كان يسـتحق أن يختفي من الوجود، لكني مع هذا أشفقت عليه قليلاً. ما كان يجب أن تصل الأمور إلى هذا الحد، لكن اللوم لا يقع إلا على الكتاب. لم يعد للتفكـير في الأمر الآن فائدة على أية حال. ولا أريد أن أطيل البقاء هناك بلا سبب كيلا تُثار الشكوك حولي.

عندما وصلت إلى المنزل هذه المرة لم أتفاجئ أبدًا عندما وجدت الكتاب في المكان الذي لا ينتمي إليه. وكان سليمًا تمامًا. لم تتضرر صفحة واحدة منه. وماذا كنتُ أتوقع؟ في الحقيقة، كنتُ سـأندهش لو لم أجده هناك. تبخرت كل عواطف الشفقة عليه، وحل مكانها بغض عميق. لم أستطع حتى أن أنظر إليه. إنه لا يستحق أن يكون معي في نفس الغرفة.

قيّـدت الحيرة عقلي، ولم أدرِ ماذا أصنع، فاخـترت الذهاب إلى المطبخ لأعـد لنفسي طعامًا. أنسـاني الركـض في أنحاء المدينة طـوال اليوم



للتخلص من الكتاب تناول أي طعـــام. قرقرت معدتي، ومنعتني آلام الجوع من التفكير بما يجب أن أفعله. فرشـــت الطاولة، ووضعت عليها طبقًا، وسكينًا، وشـــوكة، وملعقة، ومنديلاً، ثم فتحت الثلاجة. كانت الخيارات أمامي محـــدودة؛ قطعة جبن جافة، وســـجق مأكول نصفه، ونصف مرطبان خردل، وليمونتان. يجب أن أذهب إلى محل البقالة.

خطرت في ذهني فكرة وأنا أغلق باب الثلاجة. لم آخذها على محمل الجد في البداية. فالأفكار الحمقاء تخطـــر في بالي من حين لآخر، كما تخطر في بال الجميع. حاولت أن أبعدهـــا عن عقلي، كما أفعل في هذه الظروف، لكنها تشـــبثت بي. وكلما تمســـكت بي قل تعجبي من غرابتها. أدركت أخيرًا أنني وجدت الحل الحقيقي الوحيد لمشـــكلتي. وددت أن أصفع جبيني. طبعًا! لماذا لم أفكر بذلك من قبل؟

ذهبت إلى مكتبتي، وأخذت الكتاب مـــن الرف، ثم عدت إلى المطبخ. وضعته عـــلى الطبق ثم جلســـت، وأدخلت المنديل في طـــرف ياقتي. أزلت أولاً الغلاف بالشوكة والسكين، كأنني أزيل قشرة أو لفافة. كان العنوان المكتوب على الغلاف يعـــدني بمتعة حقيقية، لكن لا يمكن أن يعتمد المرء على نزاهة من أصدر كتابًـــا كهذا. ومن يدري أي مصائب تختبئ لي بين صفحات كتاب عنوانه «المكتبة»؟

رأيت من صفحة المحتويات أن الكتاب مقسّـــم إلى ستة أجزاء. أعتقد أن لكل جزء طعمًا مختلفًا، ولهذا قررت ألا أتناولها جميعًا في وقت واحد.



قطعــت كل جزء على حدة. فكرت قبل تنــاول وجبتي فيما إذا كان من المستحســن أن أضيف إليها البهارات. نظــرت إلى الغلاف من جانبيه أملاً أن أجد تعليمات أو نصيحة في هذا الشــأن، لكنني لم أجد شــيئًا. فقررت ألا أغامر بالتجربة كيلا أفسد الوجبة. وبما أنني لا أعرف أيضًا ماذا أشرب معها اخترت شرب الماء. لا يمكن أن يفسد الماء شيئًا.

ذكرتني «المكتبة الافتراضية» بســلطة روســية متقنــة الصنع، رغم أن المايونيز فيها أكثر مما أحب. أما «المكتبة المنزلية» فكانت كحســاء ثقيل أضيفت إليه شــعيرية وقطع كبيرة من لحم البقر. كانت ســاخنة جدًا فنفخت في الملعقــة. «المكتبة الليلية» كانت أقرب إلى الفلفل المحشــو بنسب متوازنة من اللحم والأرز، وهذا هو سر نجاح هذا الصنف. أما «مكتبة الجحيم» فكانت فطيرة كرز لذيذة. لا أشــتهي عادةً الحلويات، لكن هذه كانت اســتثناءً. أما «أصغر مكتبة» فكانت القهوة بالكريمة. كنت أفضل احتساء شراب أخف، لكنني لن أكون متزمتًا.

لم أتخيل أي طعام لذيذ قد يأتي بعد هذا. ما زالت أمامي القطعة الأخيرة من الكتاب في طبقي: «المكتبة النفيسة». كنت قد شبعت، لكن لم أرد أن أترك شيئًا. كما أن فضولي لا يمكن قمعه. وضعت لقمة صغيرة في فمي بحذر، وبدأت أمضغها. شــعرت أن الطعم ليــس غريبًا، رغم أنني لم أستطع أن أميز ما إذا كان طعمها عاديًا، أم لاذعًا، أم حلوًا، أم حامضًا. بل كان كل هذه النكهات مجتمعةً.



تابعت الأكل يدفعني الطموح في اكتشاف ذلك الطعم. كنت واثقًا أنني قد ذقته من قبـــل. أحببت ذلك الطعم أكثر من بقية الأصناف. ابتلعت آخر قطعة بســـعادة غامرة، لم يعكرها إلا أنني لم أعرف بعد ماذا أكلت. لكنني لم أدع تلك الحيرة تفسد مزاجي المعتدل. لقد حققت هدفي. لم تبقَ قطعة من «المكتبة» في طبقي.

نهضت مـــن الكرسي متجهًا إلى مكتبتي. لم أشـــعر بأي خوف حيال ما ســـأجده فيها. قد يستطيع الكتاب ذو الغلاف الورقي أن يعود من بقية الأماكن، لكنه لن يعود من مكانـــه الحالي. فوجوده في داخلي حقيقة لا ريب فيهـــا. فتحت الباب على مصراعيه، وابتســـمت بانتصار لما رأت عيناي ما رأته. لا وجود للدخيل القذر في مكتبتي النفيسة.




مكتبة
الفكر
الجديد

فهرس المحتويات



ما يجعل نص "المكتبة" مختلفاً هو الغرض الذي تناقشه، إنها نص خالص في مديح الكتب والمكتبات يتعالى على النقاشات الضارية اليوم على جدواها كضـرورة في بيوتنا وفي مدارسنا ومدننا، لكننا بعد الانتهاء من هذا العمل الذي يقرأ مراراً، نتمنى أن نقع على أعمال أكثر، علّنا نطـعم بها مكتـباتنا لتصبح نمـوذجاً للمـكتبة النفيسة ونضمن لهذا الكتاب قدراً متواضعاً من الخلود. لأننا هكذا بالتحديد كما يقول ألبرتو مانغيل،تـمارس من خلال القراءة طقس انبعاث، مرحبين بالمكتبة كنص جديد إلى كوننا العربي، مكتبتنا العربية .

طارق الخواجي

ISBN 978-9938-833-49-2



Design by
Mahdi Abdu

